قصص



رشا عباس

ملخص ما جرى

براءات
المتوسط

حقوق النسخ والتأليف © ٢٠١٨ **منشورات المتوسط** - إيطاليا.

جميع الحقوق محفوظة. لا يُسمح بنسخ أو استعمال أو إعادة إصدار أي جزء من هذا الكتاب سواء ورقياً أو إلكترونياً أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي من الناشر. ويجوز استخدامه لأغراض تعليمية أو لإصدار كتب موجهة إلى ضعيفي البصر أو فاقديه شريطة إعلام الدار. تستثنى أيضاً الاقتباسات القصيرة المستخدمة في عرض الكتاب.

Mulakhas Ma Jara *by* "Rasha A'baas"
Arabic copyright © 2018 by **Almutawassit Books**.

المؤلف: رشا عباس / عنوان الكتاب: ملخّص ما جرى
الطبعة الأولى: ٢٠١٨.
تصميم الغلاف والإخراج الفني: الناصري

ISBN: 978-88-85771-19-2

منشورات المتوسط

ميلانو / إيطاليا / العنوان البريدي:
Alzaia Naviglio Pavese. 120/ 20142 Milano / Italia
العراق / بغداد / شارع المتنبي / محلة جديد حسن باشا / ص.ب 55204.
www.almutawassit.org / info@almutawassit.org

رشا عباس

ملخص ما جرى

منشورات
المتوسط

بخير". ثمّ ركبتِ في تاكسي مع أصدقائك المفلسين، وأرعبتِهم، إذ بدأتِ، تحتَ وطأة السُّكْر، تهرجين بسرد مقاطع من سِفْر المزامير بعبرية ركيكة، تعلّمتِ مبادئها بالكاد، وحدّق فيكِ سائق التاكسي عبر المرآة بارتياب: احمدوا الربّ لأنّه صالح: "كي - ليه عولام - خَسدو"(*). أما ما تمنّيتِه الآن حاملةً إبريقَ ماءٍ مُثلَّج، تسكبينه على تراب الرأس الجديدة: معجب أحمق على قدرٍ كافٍ من الطرافة، لينتقي هديةً بهذا البؤس، ويغويكِ بها.

الرّصاصة الثانية

تستمعين إلى الأغنية مجدّداً. تقول الأغنية: "عدّ للستّة، ومت"، تفكّرين بأسباب تجعلكِ تفضّلين اليوتيوب على التلفزيون: في التلفزيون يقدّمون طبخاً ومشايخ وموسيقى على ذوقهم، وجثثاً. في أسوأ فانتازماتكِ لا تجدين الجثث أمراً مثيراً للاهتمام. تذهبينَ وحدكِ إلى اليوتيوب. هناك تستطيعين، على هواكِ، رؤيةَ مقاطع مجانية من أفلام "هينتاي" المرسومة؛ نساءٌ بشعرٍ ورديّ يضاجعهنّ أيّ شيء، شبّانٌ زرق الشعر بمنظر مهذّب، يضعون نظّارات طبّيّة، آلاتٌ ووحوش وأشجار ممسوخة. جلود الأشخاص تبدو نظيفة للغاية. الكثير من العواطف اللزجة أيضاً. لكن، ربّاه، كم يحتاجها المرء! تنزعجين من أنّهم يرسمون البنات بوجهٍ متألم في أثناء المضاجعة. لماذا تتوجّع فتيات الهينتاي؟ تنامين في منتصف الفيلم، لتحلمي بالقطط، تتمسّح بك بوداعة، تطعمينها ما بيدكِ، أو تمضغ ما تحملينه من أغراض ونقود عنوةً. تقرّرين، في المنام، ألا يكون لك أصدقاء سوى القطط بعد ذلك.

الرّصاصة الثالثة

تَصبّين الماء من جديد على الرأس المقطوعة. رغم ذلك، يبدو اليباس عليها أكثر فأكثر، لا ترغبُ بشرب الماء، ولا تعرفين ما ينبغي فعله. تسترقين

---

*) "لأنّ إلى الأبد رحمته" بالعبرية. المزمور ١٣٦.

الوقوع أرضاً بتهذيبٍ بالغ
أو
كيف تستخدم الرصاصات الستّ كلّها
عوضاً عن أن تلعب الروليت الروسي

"ولكن، أيّة براعة في أن تحشو مخزن المسدّس بطلقةٍ واحدة، وتُوجِّهُ نحو رأسك مختبراً حظّك؟! المدهش حقاً هو أن تدع الرصاصات السّتّ تقتلكَ كلها".

الرصّاصة الأولى

رغم أنّ المغنّي الذي يصدح صوته من المسجّل الآن لم يمُت في السابعة والعشرين من عمره، كما أساطير الموسيقى الآخرين، فإنّكِ لا تمانعين الاستماع إليه كل صباح. تفتحين ستائرَ غرفتكِ، على الحافّة تجدينَ رأساً مقطوعة صلعاء مغمضة العينين بارتياح، وموضوعة في أصيص أزهار أنيق. لا تذكرينَ أنكِ زرتِ حديقةَ المعتمد بن عبّاد الملأى بالرؤوس المحصودة، وقَطفتِ هذه الرأس. قد يكونُ الألزهايمر المبكّر الذي تعد به جيناتُ عائلةِ أمّكِ، أو هو المعتمد قد وصل بنفسه إلى دمشق ليلة البارحة مع هداياه من الرؤوس المحمّلة في قوافل مظلّلة بألف سيف مَحنيّ، سدّت مدخل حيّ باب شرقي، حيثُ جلستِ منهكة مرّةً على كرسيّ خشبية موضوعة في عرض الطريق بعد تفحيلٍ كحولي خاسر، ومسحَ سائح أجنبيٌّ ما جبينَكِ بقطعة قماشٍ رطبة قائلاً بإنجليزيةٍ صخرية: "ستكونين

نظرة من النافذة إلى المخفر في شارع منزلكم، وتحاولين التقاط صوت أحد، يُضرَب الآن. لا شيء. تعودين للاستسلام للأفكار القلقة مجدّداً، التخوّف من أنّ أحداً ما قادرٌ على رؤيتكِ الآن، على نقل صورتكِ بواسطة كاميرا مخبّأة. سيكون ذلك مُحرجاً. ترمقين الدمى واسعة العيون في غرفتكِ بريبة، وتعودين لإعلاء صوت المسجّل، وصبّ الماء، دون جدوى، على الرأس التي بدأت تظهر عروقها الجافّة المزرقّة بوضوح.

الرّصاصة الرابعة

تفتحُ أمّكِ الباب لتأنيبكِ على الصوت العالي للمسجّل. من بين ساقيها، يدخل قطٌّ آخر إلى غرفتكِ. فكّرتِ على الفور بماذا ستُجيبينها، إذا سألتْكِ عن الصوت العالي والرأس المقطوعة والعُصابات السوداء على عيون الدمى، وعن تلك القطط كلها من حولكِ. لا جواب جيّداً، ولا حلّ سوى أن تدّعي أنك مُحبَطَة، بسبب أدوية الزكام. لم تسأل أصلاً. قالت لكِ فقط إن هذا القطّ يفهم في النباتات أكثر منكِ. "انظري"، أشارت إليه، كان القطّ يلعق شفتي الرأس المقطوعة، بدأ خدّاها يتورّدان. أمّكِ على حقّ، القطط تفهم أكثر منكِ ومنها. تفكّرين بأسباب تجعلكِ تفضّلين صحبة القطط على صحبة أمّكِ.

الرّصاصة الخامسة

بين عشرات الدمى معصوبة الأعين والقطط اللاهية في الغرفة، تشغّلين اللابتوب، وتفكّرين بأسباب، تجعلكِ تفضّلين الفايس بوك على التلفزيون. لا تجدين سبباً وجيهاً، وتظلّين مرتابةً في الدمى التي تتجسّس عليكِ كل ثانية، لتنقل يومياتكِ، عبر كاميرات مخبّأة فيها، ورغم الشرائطِ السود التي أعميتِ عيونها بها. تحجبين عدسة كاميرا اللابتوب بورقة صغيرة. سمعت أن اختراق هذه الكاميرا قد يكون ممكناً. يقول موقع المجلّة النسائية: "إذا

أعجبكِ هذا الشابّ الذي لا تعرفينه، عليكِ التظاهر أمامه أنّ حياتك الاجتماعية حافلة للغاية.." لا وقتَ لهذا كله، هناك قططكِ التي يجب الاهتمام بها، والمزيد منها يحوم في الشوارع معرّضاً للأخطار، وهناك رأسٌ مقطوعة جميلةٌ للغاية على حافة النافذة قد تذبلُ في أيّ وقتٍ، وتموت، هناك مخفرٌ في الحيّ، وهناك المُعتمِد الذي وصل إلى دمشق البارحة. المطلوب أن تتصرّفي بسرعة. تضربين رأس دمية مهرّج، بدا أنها قريبة من الشاشة، ومهتمة للغاية بالفرجة على ما تفعلينه. تسقط الدمية على الأرض، وتهرع إليها القطط الكثيرة امتثالاً لغضبكِ الذي استطاعت شمّه بوضوح، يا للقطط! تقرّرين، إذا بقي وقت، أن تكبري فقط أنت وإيّاها في بيت واحد. دمية المهرّج على الأرض، انزاح الغطاء عن عينيها بفعل القطط. لقد رأت كل شيء إذاً.

الرصاصة السادسة

"السيّدة المحترمة أمّي: إذا كنتِ تقرئين هذه الملحوظة المعلّقة على الثلاجة، فهذا يعني أنني لم أعد قادرة على فعل جملة أشياء، أريد منكِ أن تقومي بها عنّي. لا تجزعي إذا رأيتِ خطّ الدم منسرباً من تحت باب الغرفة، فلتدخلي بهدوء. ولا يفزعكِ أيضاً مرأى المهرّج معلّقاً من رقبته إلى السقف، لقد استحقّ ذلك. ورفقاً بخطواتكِ، كي لا تدوسي ذيل إحدى القطط. إذا وجدتِها تلعقُ الدماء على الأرض، لا تنهريها، ولا تهشّيها عن البلاط، لقد وعدتُها أن نشيخ معاً وحدنا، ونكثتُ بوعدي. على حافة النافذة ستجدين أصيصاً فارغاً أنيقاً قربَ أصيص الرأس المقطوعة، عليه بذور بطّيخ ودوّار شمس، احملي رأسي فقط، واضغطيه على البذور، ليتوقف النزيف، هذه وصفة قديمة مجرّبة. ستبقى الرأس قادرةً على الثرثرة، والمطالبة بأقراص تسكين الصداع، فلا تبخلي بها عليها.

إرشادات السباحة على الظهر، مع قذيفة شيلكا

يقولون إنّ هذه المدينة كانت جميلة. لم أعرف في الحقيقة، إذ عشتُ طيلة ذلك الوقت فيها بنظرٍ كليل. عندما انتبهتُ إلى ضرورةِ فحص عينيّ، كان الوقت قد تأخّر. كنتُ أظنّ أنّ العالم يبدو على ذلك النحو حتّى وضع الطبيب عدسات زجاجية طبّيّة أمام عينيّ، لأتمكّن من رؤية الأرقام على اللوحة الضوئية، بعد أن خرجتُ من العيادة، شعرتُ بفداحة المشكلة: بدا الشارع مسرحية لأضواء متراقصة مشوّشة، فكّرتُ أنّني كنتُ طيلة تلك المدّة قطّة يونج العمياء التي لا يمكن تعليمها أيّ شيء. مشيتُ نحو المنزل، وأنا أراقب المزيد من الأسباب التي تعني أنّ الأمور ليست على ما يرام. المطر الذي كان يبلّل الزقاق الآن كان هو ذاته الذي بلّله العام الماضي. كان يلزمني الكثير من الجهد، لأدفع دفق الحيوية في أطرافي، وأنا أرى كم يعني ذلك الذي يحدث من موات. لا، لم يكن ينبغي لذلك المطر نفسه أن يسقط مرّتين على الزقاق ذاته. ذلك يعني فقط أنّنا لم نتحرّك خطوةً واحدة منذ سنة على الأقلّ.

قبل أن أصل إلى المنزل لمحتُ شقيقي الأصغر في الحيّ يدخّن متّكئاً على سيّارة. زاد ظهوره من قلقي، إذ كان يمكن أن أستسلم لفكرة أنني سأبقى عالقةً في زقاق واحد حتّى انتهاء الزمن، وأنا أصدأ بالتدريج تحت المطر نفسه، ولكن، لا يجب أن يحدث له ذلك. انتبه إليّ، وتوجّه نحوي،

ليسألني لمَ أبدو بهذا المزاج السيّئ. لم يكن هناك وقتٌ كافٍ، لأفسّر كل شيء، قلتُ له باختصار وعلى عجل إنّني ذهبتُ إلى الطبيب، وإنّني قطّة عمياء، وإنّني أريده أن يسافر. قادني من يدي عبر الشارع وهو يقول إنّ مزاجي سيتحسّن حالما أحصل على نظّارتي الجديدة. وضعني في المصعد، وعاد إلى الحيّ، ليلاقي أصحابه. من المصعد الزجاجي الصاعد راقبته وهو يصغر حجماً، ويبتعد.

بعد ذلك بأيّام، حصلتُ على نظارتي الطّبّيّة. كان الأمر أفضل دون شكّ، ولكن، لأنّ الوقت كان قد تأخّر لأرى المدينة، كان كلّ ما حصلتُ عليه هو مشاهد واضحة للغاية للقذائف الحمراء المتوهّجة ليلاً، والمنطلقة من سفح الجبل الذي تكشفه شرفتنا المرتفعة، إلى منطقةٍ، لا أعرفها، أو طائرات الهيلكوبتر العسكرية في الصباح الباكر التي تحلّق ببطء متوجّهة إلى أحياء أخرى.

لمَ الكذب؟ لم تكن هذه المناطق المستهدَفَة جزءاً من حياتي يوماً. كنتُ أتحرّك ضمن مساحة مقيّدة الحدود في قلب المدينة. المدرسة ثمّ الجامعة، أماكن السهر والمقاهي. لم تقفز الأحياء البعيدة إلى دائرة اهتمامي إلا بعد الحرب، وذلك أمرٌ لا علاقة له بضعف النظر. كان هذا سبب آخر سوى ضعف الرؤية، لكوني لم أتعلّق كثيراً بهذا المكان. هذه المدينة الحمقاء كانت تهب نفسها للسيّاح وحسب، أولئك الذين يأتون ويبتهجون لمرأى البسط الملوّنة والدكاكين الشعبية في المدينة القديمة، يُعجَبُون بمودّة الناس، غالباً لأنّهم لا ينتبهون أنّهم يتلقّون الشتائم بالعربية من باب الدعابة.

لقد ساعدتْني النظّارة المصنوعة بإتقان على رؤية ما حلّ بالمدينة بشكل أوضح، ولذلك خجلتُ من نفوري السابق منها. كان يبدو أنّها

نضجت الآن. بدا أنّ روحها قد تشذّبت إثر الفاجعة. مع ذلك، لا يستطيع أحد أن يحميها. ما الذي استفدناه إذاً؟

الهاتف يرنّ، دعوة للذهاب إلى مكانٍ ما. أناس يستريحون في المقاهي بعد التظاهرات، أحد الأصدقاء يمرّ على الطاولة، ليدعونا في نزهة إلى المسبح الصيفي الذي تمتلكه أسرته في ريف المدينة.

وضّبتُ أغراضي بعد أيّام، وذهبتُ. في الطريق، كان أحد رجال الشرطة يمازح طفلاً من الحيّ، مصوباً بندقيّته باتجاهه، وهو يسأله عن أيّ فريقٍ يشجِّع. كان الطفل يكشف عن بطنه بتحدّ أمام البندقية متفاخراً بالفريق الذي يشجّعه، والذي لم يكن يروق للشرطي كما يبدو. بدت لي ملامح الولد مألوفة. حاولتُ كثيراً أن أتذكّر ابن مَن هذا في الحيّ، ولكنّني استدركتُ الخطأ، فلم يكن من الممكن أن أميّزه في الأحوال كلها. لم أكن أرى جيّداً فيما مضى، وأيّاً كان شكله، فهو جديد لعينيّ. تقدّمتُ إليهما، أمسكتُ يد الولد، وأسرعتُ بالسير، إذ كان يجب أن نصل إلى المسبح بأسرع ما يمكن. الريف منطقة اشتباكات بالطبع، ولكنّ تلك هي التسوية الأفضل: أن نذهب إلى هناك للغطس في المياه التي تظلّلها شتّى أنواع القذائف. مررنا بالحواجز الأمنية كلها التي تقطّع أوصال قلب المدينة، كان الجنود يدعوننا نمرّ دون اكتراث كأيّ أمّ وابن. كان الولد غير مهتم بطرح أيّ أسئلة. شددتُ على يده بقوّة، وحثثتُ خطاي، بهدف أن أصل إلى فسحة الماء تلك. لم يكن أحد قد وصل، ولكنّ القفز فوق الباب الحديدي للمسبح كان سهلاً. سألتُه، عندما أصبحنا في الداخل، ابن أيّ جار هو؟ قال لي إنّه لا يقطن في الحيّ، وإنّما هو ابن اللحّام فقط. تذكّرتُ الجزّار الذي كان له محلّ في حيّنا فيما مضى عندما كنتُ طفلة بعد، ولكنّني لم أتخيّل أن يكون له ولد صغير بهذه السّنّ. أذكر فقط ولداً شاباً له، يحدّث

نفسه طيلة الوقت، لم يكن أحد يعرف اسمه، ويناديه الجيران: "ابن اللحّام" فقط. كان مغرماً بالعصافير البرّيّة، يمُسكها، ويضعها في أقفاص، يقدّمها كهدايا إجبارية لأولاد الحيّ. ذات مرّة نلتُ نصيبي من هذه الهدايا، قفصاً فيه عصفور بنّيّ. أبدت والدتي قلقَها من هذه المبادرة، مفترضةً أنّ قبول الهدايا من ابن اللحّام قد يشجّعه على رفع الكلفة معنا، ولكنّ العصفور مات على الأحوال كلّها بعد أيّام. كانت لابن اللحّام واقعة مشهورة؛ ذات صباح شتوي، وبينما كنتُ أصعد إلى باص المدرسة من الموقف الذي يقع أمام الفرن في الحيّ، كان ابن اللحّام يمشي باتجاهنا وهو يتحدّث إلى نفسه بغضبٍ بالغ ممسكاً مجموعةً من الأوراق. شعرتُ بالإحراج، إذ خشيتُ أن يسلّم عليّ أمام بقية التلاميذ الموجودين في الباص وهو ظاهر الجنون، لكنّه فعل ما هو أكثر رعباً من ذلك. توقّف أمام الفرن، وأخرج قدّاحة من جيبه، وهو يُكمل صياحه، وقام بإشعال الأوراق. كان الذعر بادياً على الوجوه، التلاميذ وسائق الباص ومراقبة الباص وصاحب الفرن، لم تكن هذه الأوراق إلا صوراً للرئيس. اختفى ابن اللحّام بعد ذلك، وبقي محلّ أبيه مقفلاً لعدّة أيّام، قبل أن يتجرّأ ويعود للعمل فيه، وعينه تراقب الطريق على الدوام. بعد ذلك عاد ابن اللحّام للظهور في الحيّ، وكأن شيئاً لم يكن، ممارساً هواياته في الحديث مع نفسه، وإهداء العصافير للأولاد، قبل أن يختفي مع والده بعد أن أُقفِل محلّ الجزّار، وتحوّل إلى صيدلية، يديرها صيدلاني شابّ أقلّ إثارة للاهتمام من الجزّار وابنه. لم تكن لديه أيّ ميزة سوى فضوله الذي يلاحق الجيران، ممطراً كل زبون بأسئلة متلذّذة عن أخبار الطلاق والخيانة ونشوز البنات في الحيّ. سألتُ الولد الذي معي عن اسم أبيه، لأعرف إن كان شقيقاً أصغر لابن اللحّام، ولكنّ الاسم لم يلمس أيّ مكان في ذاكرتي. وذلك منطقي، إذ غالباً لم أقرأ اسم الجزّار بوضوح في أيّ مرّة على لافتة المحلّ. قلتُ للولد إنّ عليه الشعور

بالاطمئنان، إذ لن يوجّه له أحد بندقية بعد اليوم، فهزّ كتفيه دون اكتراث، وقال إنّ ما يهمّه هو أن نعود قبل أن تبدأ المباراة فقط.

بعد ثوانٍ، كان كل شيء أفضل. إذ عندما أصبحنا تحت الماء، أنا والولد، كان كل شيء قد أصبح مَرمياً فوق في الخارج: الذنوب وسيرة حياتي الباهتة، الرؤية الواضحة المستجدّة لطائرات الهليكوبتر العسكرية. الولد بأمان، هنا لن يصل إليكَ أحد، إلا ربّما قذيفة شيلكا طائشة تنثر الماء من حولكَ. لا بأس في ذلك، لا أحد يغطس مرتدياً نظّارته على كل حال، ولن أتمكّن من تمييز ما يجري لنا بشكلٍ جيّد حينها. كم هم تعساء أولئك السابحون حادّو البصر: لقد رأوا جيّداً كل ما جرى للمدينة منذ زمنٍ طويل.

تستطيع أن تدعوني مخمل

كان الذي كسر هو الذي نجّى. آمين. اسمي غير مهمّ. عمري ٢٤ سنة. تستطيع أن تدعوني مخمل.

تفكّر وأنت تنظر إليّ أنّكَ لا تطيق أن أكون ابنةً لكَ، أو صديقةً لابنتكَ. لا يمكن لأحدٍ لومكَ على ذلك. يبدأ الأمر من الوشوم. تلك المنتشرة على كامل ذراعي، والتي تشوَّهَ بعضها مع الوقت، أو حاولتُ تشويهها عامدة، خصوصاً تلك التي كانت أسماء شبّان أحببتُهم فيما مضى. بعضها مكتوب بلغات، لا أعرفها. لم أخطئ يوماً في تمييز نظرات الاحتقار عندما تُوجَّه إليّ. بالتأكيد لا تريد أن تكون لكَ ابنة تُشبهني. قمامةٌ بيضاء. لستُ حتّى نمطاً من الفتيات اللواتي يمكن أن ترغب بهنّ أنتَ نفسكَ كحماقة تُبدّد بها اكتئاب منتصف العمر. أتفهّم ذلك، ولا أشعر بالإهانة.

اسمي غير مهمّ. عمري ٢٠ سنة. بدأتُ بدراسة الترجمة في الجامعة.

مللتُ الدراسة منذ الشهر الأوّل، فكّرتُ في أنّ أغيّر الفرع، ولكنّ الوقت كان قد تأخّر، فاخترتُ أن أترك الجامعة، وأصبح ممثّلة. رغم أنّ ذلك بدا وكأنّه سهلٌ في البداية، ولكنّني لم أنجح فيه يوماً. حدث ذلك من قبل عندما ظننتُ أنّني موهوبة في الرسم، ثمّ رسبتُ في امتحان كُلّيّة الفنون. كان والدي يُنظّف أرض البيت عندما عدتُ إلى المنزل بوشمٍ جديد على شكل نمر احتفالاً بقراري ألا أعود إلى الجامعة مجدّداً. استمع والدي إليّ

وهو يراقب موقع الوشم المتورّم. قال إنّني بدأتُ أشابه أمّي فيما أفعله، وإنّ ذلك يُخيفه. قلتُ له إنّ العمل في التمثيل يجني الكثير من الربح، وإنّني سأجعله مرتاحاً. ندمتُ فيما بعد، صحيحٌ أنّني بتّ أغيب عن البيت لأيّام دون أن يَسأل، وأتذرّع برحلةٍ إلى مدينة أخرى للقاء مخرجين وإجراء اختبارات تمثيل، ولكنّه، وفي كل مرّة يرى أحد أغراضي مَرمياً على أرض البيت وهو ينظّفه، كان يبدأ بالصياح، متمنّياً أن أتركه يعيش وحده، وقائلاً إنّه يريد أن يتزوّج مجدّداً. ثمّ يهدأ ويسألني متى سأكون قادرة على جلب نقودٍ إلى المنزل. بتُّ أتمنّى أن يعود إلى زوجته الثانية، لينسانا مرّة أخرى، كما حدث عقب رحيل أمّي. حاول كثيراً وقتها أن يعرف صلتنا بذلك الرحيل. المرّات القليلة التي أبدى فيها اهتماماً بحياتي كانت عندما يستغلّ غيابي عن الغرفة، ليفتّش هاتفي الجوّال، في غفلةٍ عن زوجته الجديدة، ليعرف إن كنتُ على تواصل مع والدتي. مع ذلك أتمنّى أن تعود تلك الأيّام، عوضاً عن جلوسه هنا طيلة الوقت، ومراقبته لي.

اسمي غير مهمّ. عمري ٢٧ سنة. سأكون ممتنّة إذا قدّمتَ لي سيجارة.

هل تعرف لماذا أبدو هكذا؟ الفرق بيننا هو أنّك تمتلكُ جذوراً ضاربة في الأرض. لأجل ذلك تبدو نظيفاً، وابتسامتك جميلة هكذا، وأبدو غير جديرة بالثقة. كان الذي كسر هو الذي نجّى. يكاد ذلك يكون قانوناً. عندما كنتُ أوبَّخ كيافعة كان يقال لي إنّني نبتٌ شيطاني، لا جذر لي. لم يكن ذلك جارحاً. كنتُ أراقب ما حولي، لأعرف السبب الذي يجعلني هكذا، بعيدة عن الألفة، وعن أيّ اشتباكٍ عميق، عن الحميمية التي أراها تدور فيما هو حولي بحيوية متجنّبةً إيّاي. كنتُ أرى جذورهم جيّداً، تلك التي تضرب في مرآة المنزل، حيث تقف فتاة مستطلعةً مظهرها قبل أن تخرج، وحيث يظهر

أقارب وإخوة وأصدقاء في كل زاوية بمعرفةٍ تامّة حول كل ما ينبغي فعله، كلّ ما ينبغي قوله، كانوا يبدون متدرّبين على ذلك، يا للغرابة، متدرّبين على حوار الحياة اليومية والخصام وابتياع الأغراض المناسبة، كانت الحميمية تسري بيُسرٍ في تلك القنوات المتشابكة كلّها، لم أكن ألقى بالترحيب حتّى عندما كنتُ أحاول نسخ ما أراه، لم أكن سيّئة في ذلك، ولكنّ تلك الأرض لم تكن أرضي، كنتُ أرى بوضوح كيف أنّني لُفظتُ منها، ولم أنبت كما خصومي أصحاب الجذور أولئك الذين استطاعوا انتزاع كل شيء رغبتُ به. مرّ وقتٌ طويل قبل أن أعرف منذ عهدٍ قريبٍ فقط أنّ الذي كسر هو الذي نجّى، وأنّ أوسمتي كانت في جيبي منذ أن وُلدتُ، عندما بتُّ أراهم، بتصلّبهم في الأتربة الوسخة، عناصر بخسة، حين تحرّكت الأرض لتنقلب إلى داخلها، كان المجد للنبت الخبيث وحده الذي تناثر بخفّة مع الريح. فليتبارك اسم الربّ، ولتقع كلمته على الدنيا كضربة سيف، كان المجد لي، لعنصري الطائش الأزرق، للعين الزائدة القبيحة التي فُتحت في صدري، ومُنعتُ طويلاً من الإشارة إليها إلا كندبة. كانت القيامة قد حلّت، وكانت الأرض لي. وصلتُ إلى هذه المدينة قبل عام. ظننتُ أنّني سأشعر بالألفة أخيراً، مع المسوخ كلهم الذين يعيشون في المكان، أشباهي. ظننتُ أنّني لن أكون غريبةً، كما كنتُ في البلد، ولكنّ ذلك لم يحصل. هل تعرف كم هو مستحيلٌ أن أجد عملاً؟ قد يرون مظهري طريفاً، اللون الأزرق في شعري، أقراط الوجه والوشوم؛ لكن، لا أحد قد يكلّفني بعمل. أستطيع طبعاً أن أرتدي ليوم مقابلة العمل ثياباً نظيفة، وأخفي ذراعيّ تحت أكمام طويلة، ولكن، ليس هذا هو القصد. إنّما هذه الهيئات وُجدت لنميّز بعضنا، ولئلا نبذل جهداً في التعامل مع مَن هم عبء علينا. نحن بلا جذور، هذه هي القصّة. لم يكن الأمر يوماً سهلاً، ولذلك أنا هنا. أشعر بالبرد حقاً من الوقوف في الطريق، والتحدّث إلى الناس المسرعين جداً.

اسمي غير مهمّ. عمري ١٧ عاماً. تستطيع أن تدعوني مخمل.

كنتُ وحدي في البيت. هاتفتُ أبي، لأطلب نقوداً، كي أبتاع طعاماً. طلب منّي المرور دون أن تعلم زوجته، فأغلقتُ الخطّ، ونزلتُ إلى الحديقة. جلستُ هناك قليلاً، وحاول شبّانٌ جالسون أن يرسلوا لي سلاماً مع ولدٍ متسوّل مع علكة قدّمها لي. قمتُ بسرعة، وأسرعتُ إلى ركنٍ آخر في الحديقة، حيث وُضِعت ألعاب الأطفال. اخترتُ مقعداً خشبياً فارغاً، لأجلس عليه. بعد ذلك بدقائق، جلست بجانبي امرأة سمراء محجّبة، نحيلة وطويلة، تبدو في الأربعينيات. تبدو ذات جذورٍ عميقةٍ للغاية، ولا تحتاج إلى رأي أحد في حياتها. أخرجتْ من كيس نظيف سندويشة فلافل، وقسمتْ لي نصفها. خجلتُ بشدّة، لأنّ دموعي انسكبت وحدها وبغزارة منذ أن وضعتُها في فمي. كان الخبز دافئاً والأقراص ساخنة بعد. بدا أنّ هذه المرأة ذات جذورٍ حقاً كما تخيّلتُ، فهي لم تغمرني بأيّ شفقة. انتظرتْ حتّى أهدأ قليلاً، لتقول لي، دون أن تسألني عن شيء، إنّها تعمل في دورة لمحو الأمية في الريف، وإنني يجب أن أعمل لئلا أشعر بالسوء، ولذلك يمكنني العمل معهم. سألتني عن أهلي، وقلتُ لها إنّهم مسافرون. بدا لي أنّها استاءت من ذلك، وطلبت رَقْم هاتف منزلنا. انزلقتُ بشكلٍ غريب لأن أعطيها إيّاه دون أن أزوّر رَقْماً كما كان يمكنني أن أفعل بسهولة. شكرتُها، وذهبتُ إلى البيت نادمة، سأواجه مصيراً أسود، إذا عرف أهلي أنّني أبوح بمشاكل المنزل لسيّدة غريبة في حديقة. تمنيّتُ ألا تتّصل، ولكنّها اتّصلت.

اسمي غير مهمّ. عمري ٢٦ سنة. تستطيع أن تدعوني مخمل.

لا تلمسني إذا أردتَ ألا تُطرَد خارج الحانة، الحارس العملاق ينتظر

تسليته اليومية من خلال الزبائن الذين يفقدون السيطرة، ويلهو بجرّهم خارج الحانة بإذلال. تستطيع أن تنظر كما تشاء إليّ أو إلى زميلاتي هنا. قيل لي إنّ عليّ أن أبتسم لكَ، وأن أتحمّل دعاباتكَ الجنسية ريثما آخذ الطلب، ولكنّك لا تستطيع لمسي، وإلا سيحملكَ الحارس العملاق إلى الخارج. أحمّل سكّيناً صغيرة في طيّات ردائي، لم أستخدمها بعد. ينادونني هنا مخمل، أنت أيضاً تستطيع أن تناديني كذلك.

اسمي غير مهمّ. عمري ٣٠ عاماً. تستطيع أن تدعوني مخمل، وأن تقدّم لي سيجارة.

أحبّ التدخين كثيراً، ولكنّني لا أملك النقود دائماً لشراء العلب. عندما ألفّ السجائر يدوياً، فإنّ محتوياتها تقع قبل أن أدخّنها، وتشتعل الورقة فقط وحدها بسرعة. لا تخفْ، هناك مكانٌ أستطيع النوم فيه لدى أقرباء يقيمون في هذه المدينة. ولكنّني أشعر بالحرج، لأنّه ليس منزلي، ولا أدفع أجرته، لذلك أفضّل ألا يراني أصحابه خلال النهار، وألا أعود إلى هناك إلا بعد أن يناموا. الساعة الآن الحادية عشرة، ولم يتبقّ وقتٌ طويل حتّى أتمكّن من العودة. أنا لا أعمل في البغاء كما ظننتَ، لكنّني أحبّ هذه الملابس وحسب؛ أحبّ هذه المباهج المزيّفة الصغيرة، وحسّها المصطنع السوقي. رغم أنّني أشعر بالإطراء لسؤالكَ ما إذا كنتُ أقدّم خدماتٍ جنسية، وأحترم وحدتكَ، ولكن، للأسف كلّ ما أستطيع فعله هو أنّ أحكي لكَ قصّتي، لتشعر أنّك عشتَ تجربةً خاصّة. أطلب فقط مقابل ذلك أن تقدّم لي سيجارة، أدخّنها ريثما يأتي الباص، وأتمكّن من الذهاب، لأنام اليوم.

اسمي غير مهمّ. عمري ١٧ عاماً. تستطيع أن تدعوني مخمل.

رنّ الهاتف كثيراً. كنتُ أخشى أن أردّ، أردتُ أن أوحي لمرأة الحديقة التي أظنّ أنّها المتّصلة أنّ هذا المنزل قد هُجر فقط، ولن يردّ أحد يوماً. علّها تتوقّف بذلك عن الاتّصال، ولا تكتشف أمّي، إذا عادت يوماً إلى المنزل، أنّني حكيتُ للغرباء مشاكل المنزل. عزمتُ مرّة على الرّدّ وتغيير صوتي والكذب عليها على الهاتف قائلةً إنّ الرَّقْم خاطئ. كانت هي كما توقّعتُ. سألت عنّي. وعوضاً عن المضي في خطّتي، ادّعيتُ أنّني شقيقة لي. قالت سائلة عنّي: هل تخرج كثيراً من البيت؟ سكتُّ، فنادتْني باسمي، اسمي غير مهمّ. أغلقتُ السماعة، ونزلتُ من المنزل.

اسمي غير مهمّ. عمري ٢٦ عاماً. تستطيع أن تدعوني مخمل.

الحارس العملاق ليس مَن أخرج معه، مع ذلك لا تجرّب أن تلمسني في أثناء عملي، كي لا يرميكَ خارجاً. في نهاية الأمر، رُميتُ أنا خارجاً. ذلك كلّه من أجلها، اسمها غير مهمّ أيضاً. اقتنعتُ أنّها الشخص المناسب لي، وكانت نقطة بيضاء وحيدة في كل السوء الذي يجري. كان لها أنفٌ مدبّب طريف المظهر. لم تكن قادرة على التعامل مع ذلك الزبون الذي أخذ يناديها كل دقيقة بذريعة الطلبات، ليتحدث إليها، ويُحرجها. كان وجهها الشاحب يحمرّ، واستطعتُ أن أرى كم هي متشنّجة بسببه. توجّهتُ إلى الطاولة دون تردّد، كنتُ أتلمّس السّكّين الصغيرة في جيب ردائي. "هل لمسكِ الزبون، يا مخمل؟". لم أجبْ على سؤال مديرة الحانّة، طلبتْ منّي مديرة الحانة أن أترك العمل. لم أعد أرى تلك التي طُردتُ من أجلها بعد ذلك. تحدَّثتُ إليها مرّة بعد سنوات، وعلمتُ أنّها عادت إلى منزل أهلها، ثمّ تزوّجت، والآن لديها أولاد كثيرون وحلوون، يملؤون عليها المنزل.

كانت قد ضربت بجذورها في أرضٍ مباركة، وكنتُ لا أزال أركب الريح، معلّقة إلى قبّة الدنيا من وشومي الشوهاء وشعري الأزرق.

اسمي غير مهمّ. عمري ٣٠ عاماً. تستطيع أن تدعوني مخمل.

أمضيتُ من الوقت أكثر ممّا يلزم وأنا أحاول الحديث مع أحد في الخارج، وكان القطار الأخير قد غادر اليوم. ليست هذه المرّة الأولى التي سأمضي الليلة فيها في الطريق. شققتُ طريقي بصعوبة بين سيول المطر، كان ذلك أكثف هطولٍ رأيتُه منذ سنواتٍ طويلة، لم يكنَ صباغ الشعر البخس الذي أستخدمه قادراً على الصمود طويلاً. عمري ٣٠ عاماً واسمي غير مهمّ. في دنيا الصقيع كنتُ سأُسمَّى نبية، أحمل الوحشة على كتّفي افتداء للآخرين في المُدُن المخدَّرة، وتقطرُ قصّتي طلاء شعر أزرق على طول الطريق. من هذا الأثر، ستنبتُ أسطورتي أخيراً من قلب الأرض، مقاعد خشبية زرقاء للضالّين، لا يُتلف لونَها المطرُ، يجلس عليها بانتظارك أناس يُخرجون من أكياسهم البيتية النظيفة ما يُؤكَل، ويسألونك بإلحاح عن رَقْم منزلك. آمين.

نيجاتف لصورة فوتوجرافية مع أخي
(قصّتان)

"قد يكون الأمر غير مثير للاهتمام بالنسبة إليكَ، لكنّي أشعر بمساس الحاجة لأن أحدّثكَ عن أخي"

١.التدرّجات السوداء من الصورة: في المنزل وجدتُ الكثير من الناس

ما الذي دفعني إلى موافقتكَ على ما حدث كله؟ في البداية كنّا في قلب السيّارة تحت المطر الكثيف الذي تشقّه إنارة الطريق الخافتة. قلتَ لي إنّ أخي نائمٌ وهو يقود السيّارة. لم أكن قد انتبهتُ، وحين نظرتُ إليه وجدتُه نائماً فعلاً خلف المقود. أوقفتَ السيّارة، وأنزلتَهُ منها وأنا أراقبكَ، وضعتَهُ على الطريق، ومددتَهُ هناك. لم يستيقظ، وبقي غافياً على الصورة التي وضعتَه بها، ليبتل قميصه الأبيض خلال ثوانٍ تحت المطر، ملتصقاً بعظام صدره البارزة. بدا لي، وأنت تضعه على الرصيف بتلك الثقة والتلقائية، أنّ هذا هو التصرّف البديهي في مثل هذه المواقف: أن يتمّ إخراج النائم خارج السيّارة، ويُمدَّد في الطريق، ليتمكّن الباقون من إكمال سيرهم. حتّى إنّني لم أذكر الموضوع أصلاً ونحن صامتان نقطع الطريق الموحشة في السيّارة التي استلمتَ قيادتها. فقط خفق قلبي قليلاً، إذ لمع ضوء الشارع على ورقة كبيرة خضراء لشجرة بدت داكنةً ولامعة بفعل المطر. في هذه الصورة وألوانها، يدرك المرء جوهر الليل بشكل أوضح:

العتمة والإحباط والمصائر المجهولة لأشخاص مثل أخي الأصغر الممدَّد الآن نائماً في مكانٍ ما خلفنا.

في الصباح، كان ينبغي أن أذهب لأتفقّده، وأعرف ما جرى له. هبطتُ التلّة المشمسة المرصوفة بالأحجار، لأصل إلى مكان عمله. وجدتُ أنّهم قد نصبوا في الفسحة التي كانت تتوسّط مكان العمل ستائر بيضاء بلاستيكية، يجلس داخلها الناس متلاصقين. رأيتُه بينهم هناك. شققتُ طريقي، لأصل إلى المكان. كان جالساً بين الآخرين مرتدياً سروالاً داخلياً قطنياً فقط، يبدو عريضاً عليه كأنّه لشخص آخر. تمكّنتُ من الدخول بسهولة لم أتوقّعها إلى الحجرة التي علمتُ أنّها سجن مؤقّت، أقيم هنا. جلستُ بقربه. عندما فكّرتُ بالموقف وحقيقته فعلاً، ظننتُ أنّ قلبي سيتوقّف من القهر. لا أعلم بعد إن كان يعرف أنّني السبب في وجوده هنا على هذا النحو. كنتُ أريد أن أعرف ماذا يتذكّر تماماً عمّا جرى ليلة البارحة. قال لي إنّ رجال الشرطة وجدوه صباحاً وهو مستلقٍ في الشارع، ومن ثمّ اقتادوه إلى هنا. "طبعاً سرقولي محفظتي"، قال بتسليم. أغمضتُ عينيّ، ونجحتُ في تذكّر محفظته تماماً كأنّي أراها الآن: كان يحمل فيها ثلاثة أوراق من فئة العشرة آلاف ليرة لبنانية الصفراء، وورقة واحدة من فئة الخمسة آلاف. أمسكتُ يده البيضاء النحيلة كأيدي البنات، وقلتُ له إنّني سأجلب له نقوداً أكثر ممّا سُرق منه. لقد كنتُ صادقة فعلاً فيما قلتُه، إذ كان من الواضح بالنسبة إلي أنني أستطيع أن أسرق وأقتل لأعطيه نقوداً بدل التي أضاعها. كان ذلك جلياً للغاية. خرجتُ لأعرف من أحدٍ ما كيف يمكنني أن أُخرجه. سألتُ رجلاً يجلس في مكتب أمام الحجرة كما لو أنّه يجلس في صدر مقهى يديرها. دلّني على غرفة أخرى. دخلتُ إليها، وسألتُ رجل شرطة عمّا يمكنني فعله من أجل أخي، فقال إنّ علينا الانتظار أكثر حتّى نعرف كيف نتصرّف، ربمّا إلى الغد. خرجتُ من الغرفة، لأحاول التحدّث

مرّةً أخرى إلى أخي، لكنّ ازدحاماً كان قد احتلّ المسافة أمام غرفة السجن. مددتُ رأسي بين المتدافعين، ولم أتمكّن من رؤيته.

في المنزل، وجدتُ الكثير من الناس. لم أكن أريد أن ألاطفهم بعد أن عدتُ مطرودة من السجن، ولم أرَ أخي مرّةً ثانية. كانوا يمرحون في كل حجرة مع أطباقهم وأكوابهم. نظرتُ إلى باب الشرفة، فوجدتُ أنّ الغسّالة القديمة تسدّه. وقرّرتُ أن أزيحها، لأخرج وآكل وحدي هناك. أزحتُها، وخرجتُ بفنجان قهوة، لأشربه، وأهدأ قليلاً. خرج ورائي اثنان أو ثلاثة منهم. لم أستطع أن أتحمّل ذلك، فأنا يجب أن يكون لي الحقّ بأن أكون وحدي على الشرفة الآن. وجدتُ نفسي أصرخ وأشتمهم، ورميتُ الفنجان على الأرض، لينكسر، وتركتُ الشرفة عائدة للداخل، وأنا أوبّخ نفسي قليلاً، لأني تصرّفتُ هكذا مع أناس غير مذنبين فيما حدث لي ولأخي.

٢.التدرّجـات البيضـاء مـن الصـورة: يـوم عـاد أخـي مـن المعركـة

لم أرد الاستماع إلى التمثيلية الإذاعية، لقد أخذوا أخي. ظللتُ مع ذلك جالسةً دون اكتراث، بينما كان والداي يستمعان إليها، مفترشة السجّادة الحمراء التي تغطّي أرض غرفة الجلوس، وتمتدّ قليلاً عنها، لتقوم أمّي بثنيها من الأطراف، وتوزيع آنيات كبيرة ذهبية اللون في الزاويا، لتخفي هذه المشكلة. حفرتُ السجّادة الثخينة بظفري، وأنا أحاول تشتيت انتباهي عمداً عن سماع التمثيلية. كان والدي يتشاغل بالتسبيح وشرب الشاي من قدحٍ شفّاف، بينما تضع أمّي يدها على خدّها وتراقب النافذة، وهي تستمع باهتمام إلى الراديو الذي اضطرّت إلى خفض صوته، لئلا تُزعج جدّي الذي كان يقيم معنا في المنزل، ويقضي معظم وقته منهمكاً بالقراءة في غرفته.

كنتُ أحتفظ بشريطٍ كاسيتٍ، سجّلنا عليه، أنا وأخي، محاكاتنا الساخرة لكل برامج الإذاعة، عندما كنّا أطفالاً، في وقت فراغنا بعد أن نعود من المدرسة الأرمنية التي كنّا نرتادها لقُربها من المنزل. منها تلك التمثيلية الإذاعية التي تتحدّث عن رجلٍ وزوجته وغيرته الدائمة عليها لأتفه الأسباب. قمنا كذلك بتقليد مسلسلات الجرائم الإذاعية، كنّا نؤلّف شخصيات المجرمين بشكلٍ ارتجالي، ونجعلهم يمتلكون كلهم القصّة نفسها، لكسلنا عن ابتداع قصّةٍ أكثر تعقيداً: فقراء ونزيهون يرفض أحدٌ إعطاءهم أيّ عمل، ممّا يجرّهم إلى طريق الإجرام. كنّا نقلّد أيضاً برامج الأطفال التعليمية، وبرنامجاً للمسابقات، يلعب فيه أخي دور متّصلين أغبياء، يجيبون عن أسئلة المسابقة بأجوبة عشوائية، أو يتّصلون ظانّين أنّ البرنامج لإهداء الأغاني بين العشّاق.

كان هذا الشريط ذاكرتي معه. كان صوته عندها صغيراً مشابهاً لصوت

امرأة حادٌ قبل أن يصبح أكثر خشونةً. عنى ذلك أن يأخذوه إلى المعركة، وكنتُ دائماً أظنّ أنّني سأراه يكبر، ليقضي أوقاته بالمرح، متأبّطاً ذراع فتاة جميلة. كان والدي يسخر من ملامحه الحسنة كالبنات، مشيراً إلى أنّه ورثها عن جدّي لأمّي الذي اشتهر بوسامته. كان يريد بذلك استهداف عائلة أمّي ملمّحاً إلى سخف جوهرهم وتعلّقهم بالمظاهر والثراء التي لا يملكون قِيَماً غيرها. ولكن، مهلاً، لا داعي لاعتباره شخصاً سيّئاً بسبب ذلك، لقد عانى طويلاً بدوره من الدعابات الفظّة لأمّي وأقاربها عن تواضع منشئه، وإصرارها على تذكيره، أنّها قد تزوّجته دون رغبة، ولكن، لأنّ أهلها رأوا فيه زوجاً حسناً ذا مستقبل جيّد. هم فعلوا ذلك في الحقيقة، ليُبعدوها عن شابّ وسيم عاطل عن العمل، كانت قد بدأت تتعلّق به في الجامعة. في النهاية، لا تعني كلمات أبي هذه شيئاً، ليستمرّ بقول ما يشاء. أقواله هذه ما هي إلا سحابةٌ من غبار الكلام، وستتلاشى على الفور في حضور أخي، بقامته الطويلة وشعره الأسود اللامع.

بانشغال أبي بالتسبيح وانهماكه بشرب الشاي، كان الغضب يزداد لديّ. كأنّه لم يحزن لأنّهم أخذوا أخي.

لا، لم يكن حزيناً بشكلٍ كافٍ، وربّما كان فرحاً أيضاً. وجه أخي الجميل ما هو إلا امتداد لقلقه القديم حول أمّي، التي كادت تسبّب له الجنون خشية أن تهجره ذات يوم. كان يعرف أنّها إن تركتْه، وفي لحظة وصولها إلى حيّ منزل أهلها، سيطرق الباب كل شابّ أعزب في الحي حاملاً الورد، وستكون هي تلك الورود كلها معاً. بدأ يهدأ قليلاً عندما شاخت وذبل حسنها، ولكنّ وجه أخي كان التميمة التي ذكّرتْه دائماً بهذه اللعنة التي أرهقتْه طويلاً. الوجه الذي تُفتَح له الأبواب، وتضحك له قلوب الناس دون أن يبذل أيّ جهد.

لا بد أنّه سعيد بذهاب أخي، لا داعي للشكّ، ولا بد أن تتدخّل عدالة السماء لإفساد هذه السعادة المسمومة.

سمعتُ صوت مفتاح يتحرّك في قفل باب البيت في هذه اللحظة بالذات. ذلك له تفسير واحد فقط؛ لقد عاد أخي من هناك. وجدتُ أبي وأمّي لابثين في مكانيهما دون أن يبدي أحدهما أيّ اهتمام. لقد صدقتْ ظنوني إذاً، وهما لم يحزنا بشكلٍ كافٍ. لكنْ، ليس ذلك مهمّاً. قفزتُ من مكاني، وركضتُ عبر الردهة نحو الباب الذي كان قد فُتح الآن، وكان الضوء يغمر كل شيء. العفن كله الذي تسلّق الجدران طيلة فترة الغياب كان الآن يتهاوى على الأرض، ورائحة الرطوبة تختفي، بينما كان الهواء النقي القادم من الباب يجرح صدري وهو يملؤه للمرّة الأولى منذ وقت طويل. لم أستطع تبيُّن ملامحه بدقّة من شدّة الوهج، ولكنّني استطعتُ تمييزه مرتدياً بزّة بيضاء واضعاً في جيبها وردة. استطعتُ، في قلب السطوع، رؤية شعره الأسود يلمع مسرَّحاً بفرقٍ جانبي، مع شاربيه الحادّين. أمسكتُ يده، وركضتُ إلى غرفة جدّي، لأريه كيف أنّ أخي قد عاد. فتحتُ الباب، ولكنّه لم ينظر إلينا، مستمرّاً بالقراءة من كتاب في يده. سحبتُه إلى غرفة المعيشة، حيث يجلس أبي وأمّي. لم يرفع والدي نظره عن السجّادة وهو يُسبّح، وكانت أمي شاردة وهي تتابع أحداث التمثيلية. خفتُ أن يُصاب أخي بالإحباط من برودة استقبالهم، فشددتُه من يده، وركضنا نحو غرفتنا، ورمينا بأنفسنا على كومة الملابس المغسولة الموضوعة على الأرض، ونحن نواجه الشبّاك الذي يدخل منه الضوء غامراً المكان، مردّدين معاً القطعة الأرمنية من صلاة الصباح التي كنّا نتلوها في المدرسة:

"أيننهور – يفورتفور – يفورتفي – سيربو – آمين"

ثلاث أغنيات لجاورجيوس

"**بسمِ الله.. ما شاءَ الله** ..."(*) الذي ينتشلُ رمحه من قلبِ التنّين، ويرميه من فوق كتفي. ميتاتكَ الثلاث قبلَ هي الآن ثلاث نثراتٍ من لحاء الجوز مَرمية في أركان الدنيا، تُقلّبها الريح تسعمائة عام حتّى تجمعها في اللّدّ. يومَ تنتشل رمحكَ من قلب التنّين، وترمي به القمر. تشقّه، ليهبطَ على الأرض ثلاث ميتات أخيرة، قضيتها عنّا قبلَ ذلك: السكاكين والحريق والمعصرة.

* * *

سيّدنا الذي ينام على القبّة الخضراء مغمضاً عيناً واحدة. له اثنان وثلاثون اسماً، يغسلها شيخ بكّاء. سيّدنا الذي يُبقي عيناً مفتوحة على خاطرِ الشيخ البكّاء خدام القبّة. نمرُّ وننفخ في أذنيه الأمنيات. تختلط في نومه، ليوّزع على كلّ منّا أمنية الآخر في الصباح. يوم تعثّرتُ مصادفةً باسم لكَ، يا سيّدنا، تحت القبّة، سألتُكَ الحُبَّ. بعدها بأشهر، وجدتُ قلباً ثانياً ينبض فيّ. عرفتُ أن المرأة العاقر التي قصدتْكَ في يومي نفسه قد هربت من عند زوجها. أعطيتَني ولدها، وأعطيتَها حبّاً كان لي. في القرية ولدٌ بلا حبّ أُلقي في النهر. والمرأة العاقر لم تُنجب لحبيبها. نجلبُ لك مغطسَ شمسٍ، لتفتح عينيكَ الاثنتين علينا، يا سيّدنا.

***

---

*) الجمل بالخط العريض هو جزء من الدُّعاء الذي يُنسَب إلى الإمام الخضر.

"ما شاء الله .. الخير كلّه بيد الله". الذي ينتشلُ رمحهُ من ساقية الحبر، ويرميه من فوق كتفي. يومَ شقّ القمر ثلاثاً، وسال الثلثُ الأوّل سكاكينَ فضّة، عبرت صدر الجبل. هربنا من القرية. كنتُ معهم، وقالوا لي ألا أجزع، لأنّهم سيجلبونه مع القادمين بعدنا. جاءَ القادمون كلهم، ولم يأت. الذي ينتشلُ رمحهُ، ويشقُّ الليلَ نصفين كتفّاحة، سيحملهُ إليَّ من بين السكاكين. سيحملهُ قبل أن يسيل الثلث الثاني من القمر حريقاً، يُميت الأرض ثاني ميتةٍ قبل الزوال.

***

سيّدنا الذي ينامُ على القبّة الخضراء، يفتح عينيه الاثنتين، إذا بكى خدّام القبّة. مرّة ألصق أربعين راية، يحملها فرسان موكب الملك بجدار القبّة. أحدهم شتم الشيخ، فبكى، وعندما أرادوا الرحيل، لم يقدر رجل منهم على انتشال رايته المسنودة إلى الجدار حتّى طيّبوا خاطر الشيخ. حملوها، وذهبوا. بنتٌ صغيرة ستقطع طريق السكاكين المغمدة في الأرض غداً، لتنفخ أمنيّتي في أذنه: احملهُ إليّ، نَجِّهِ من حريقِ الغد.

***

"ما شاء الله.. لا يصرفُ السوءَ إلا الله" ...الّذي ينتشلُ رمحهُ من طينِ الأرض، ويرميه من فوق كتفي. يومَ شقّ القمر ثلاثاً، وسال الثلثُ الثاني [illegible] عبر البحيرة قبل أن يصل الأرض التي منها هربتُ. يومَ تركتُهُ فيها، [illegible] القادمين سيجلبونه معهم. لم يجلبْكَ القادمون، ولا حملكَ [illegible] فوق فَرَسه. وسيّدنا النائم بعين مغمضة أعطى [illegible] خرج إليها رجلها من بين السكاكين وأبخرة [illegible]

دنس

لديّ رجلٌ مسكين ينتظرني، بعد أن أعبر هذه الحواجز الأمنية كلّها. هذا ما لا يقال على كلّ حالٍ لأولئك الواقفين على الحواجز. خصوصاً هذا، أول حاجز يعترض طريق سيّارات الأجرة القادمة من بيروت للدخول إلى دمشق، سيّئ السمعة. لا فائدة من أن تقول للعسكري على حاجزٍ أمني أن يُسرع، لأنّ هناك رجلاً مسكيناً ينتظرك في الساحة قبالة منزله. لستُ أقلّ منه طيبةً بدوري، أحببتُ أن أبدو حسنة المظهر، وأنا ذاهبةٌ إليه. وضّبتُ نفسي وأنا قلقةٌ من أكون قد بالغتُ في ذلك، إذ سأشعر بالانزعاج عندما يراني، ويعرف أنّني تأنّقتُ هكذا من أجله. على ضوء المصباح، استطعت أن أتبيّن ملامح العسكري الّذي يُنبّش في هوياتنا، بدا وسيماً، إنّما تلك الوسامة غير المطمئنة. قلبها واحدةً تلو الأخرى في يده، توقّف عند بطاقتي. قلّبها مجدّداً، كنتُ أعرّف أنّه سيُعلّق على الكسر الذي في البطاقة. في الأحوال العادية، وعندما أكون حسنة المزاج، كنتُ أتبّع تقنية واحدة للتخلّص من إزعاجهم. أنزل من السيّارة أمام عسكر الحواجز، إذا سألني أحدهم بشأن البطاقة. أُريهم ما أرتدي مستنكرةً أن أُتَّهم بالاصطفاف مع "ثورة الإرهاب وقطع الرؤوس" بسبب كسر الهوية. الآن الوقت غير مناسب، كما أنّ هذا الرجل غير مُطَمْئِن. كنتُ أصلّي، لتنتهي سريعاً. هناك رجلٌ طيّب ينتظرني، هو من أولئك الذين لا يعرفون كيفية التصرّف الأمثل في معظم المواقف، لا يعرف كيف يعتذر المرء حتّى. إذا غضبت، يعرف فقط أن يربّت على الكنبة بجانبه، ويقول بمودّة: تعالي، يا امرأة، اجلسي بجانب زوجك.

"كسرتُها دون قصد، وأنا في بيروت، كنتُ أنتظر موعد العودة الآن، لأقدّم بلاغاً بشأن الكسر لدى الشرطة". عادةً كانت جملة كهذه كافيةً ليُعيد إليّ العسكري البطاقة بعد أن يتفحّصها لثوانٍ إضافية. ولكن، الآن الوقت غير مناسب، هذا الرجل غير المُطَمْئِن انحنى أكثر مقترباً من النافذة، ووجّه ضوء البيل إلى وجهي مباشرةً. تمعّن قليلاً في وجهي، كلّ ما كنتُ أريده هو أن أبدو بمظهرٍ حسن. من أجل ذلك الطّيّب الذي ينتظرني الآن، وقد حان الوقت، ليبدأ بالقلق. تذكّرتُ قصة نساء دمشق اللواتي لطّخنَ وجوههنّ بالطين عندما سقطت المدينة بأيدي المغول لإخفاء وجوههنّ عن الغزاة. لم يكن لذلك من فائدة في ذلك الحين. على ضوء البيل الذي ما يزال في عينيّ، وضح لي أمرٌ آخر سوى توتّري واشتياقي لرجلي الطّيّب. كانت عينا رجل الحاجز السوداوان الوقحتان تلمعان من انعكاس الضوء، لم أرَ هذا السواد من قبل إلا في عيون العصافير، كان وجهه يطفح بالحسن، وكنتُ أوّد لو أنّني لا أرى ذلك. قال: "ماذا علينا أن نفعل بشأنك الآن؟"

قلتُ وأنا أتفرّس في وجهه: "نفعل ما تريد". ابتسمتُ كأنّني عشيقتُه منذ الأزل، كأنّني أستيقظ قبالته في السرير كل يوم.

لم يكن ليخرج خاسراً، أعاد لي البطاقة، ولئلا يكون ذلك اندحاراً صريحاً، أرفق ذلك بنظرةٍ متمعّنة على صدري.

مضت السيّارة أخيراً. لم نتبادل كلمة طيلة الطريق، السائق وبقيّة الركّاب وأنا. لم يكن ذلك مهمّاً. كنتُ سأصل بعد قليل إلى الرجل الطّيّب الّذي ينتظرني. الذي سأمضي عنده يومي إجازتي. الذي لا يملك منزلاً، بل يستعير مكاناً لصديقه عندما آتي، والذي إذا مات سيقف على شرفتي بهيئة طيرٍ أبيض. الذي سيرى كيف وضّبتُ نفسي من أجله، وسيرى

كيف أخجل لمعرفتي أنّه يرى ذلك. الذي سيمسح على وجهي متلمّساً بشرته التي نعمت بفعل قناع الطين الذي وضعتُه على وجهي قبل أن آتي. الطين الذي تذكر الوقائع أنّه لم يتمكّن من صَدّ المغول. لذلك فقط سأصل بعد قليل إليه، سيُوبّخني لأنّ هاتفي كان مغلقاً. لئلا أغضب طيلة الإجازة سيقول لي تعالي واجلسي إلى جانب زوجكِ. سأجلس، سأقول إنّنا اليوم سنكسر مَلَلَ المساء، ونستعين على قضاء الوقت في ظلّ انقطاع الكهرباء بتمثيلية، ستكون اليوم وسيماً قذراً، يحرس حاجزاً أمنياً، وسأكون امرأة عابرة بوجه نظيف وبطاقة هوية مكسورة.

مانيفستو الكراهية المطلقة

ألعابكَ مقلقة. كانت على الدوام تبدو وكأنّها ستنتهي نهاية سيّئة، مثل أن أستيقظ الآن، وأرى عينيّ معصوبتين ويديّ مقيّدتين خلف ظهري إلى الكرسي. ابتسمتُ منتظرةً أن تأتي إليّ، ولكنّني لا أحبّ ذلك. أبتسم فقط لأنّني أخاف أن تحسّ بضيقي، فتبالغ أكثر في الأذية. مضت بضع دقائق، ربّما، وتشنّج وجهي وأنا جالسةٌ هنا مرتديةً هذه الابتسامة القاحلة. استسلمتُ وقرّرتُ أن أناديكَ، رغم علمي أنّ ذلك يعني أنّني خسرتُ. ناديتكُ مرّة ثانية، لم تجبْ. عوضاً عن ذلك، خاطبني ذلك الرجل من خلال مكبّر الصوت، كما كنتَ أنتَ تفعل أحياناً في ألعابكَ المقلقة: "إذا أتيتِ بأيّ حركة الآن، فسيتمّ حقنكِ مجدّداً بالمخدّر". بدأتُ أستدرك أين أنا بالتدريج مع نبضاتٍ مؤلمة في رأسي من شدّة الصداع، وتذكّرتُ أيّ مخدّرٍ يقصد، تذكّرتُ الإبرة المعدنية الكبيرة التي وخزوني بها، وعاد صدغاي يؤلمانني بشدّة. استطعتُ تبيّن ضوء ساطع في الغرفة رغم الشريط اللاصق الموضوع على عينيّ.

كان الرجل الذي يصرخ عبر مكبّر الصوت قد صَمَتَ الآن، ولكنّني استطعتُ أن أميّز حديثاً يجري في الغرفة الثانية. لم يكن الكلام واضحاً، ولكنّ أحداً ما كان يشرح شيئاً لآخرين يقاطعونه أحياناً. كنتُ متأكّدة أنّ واجهة زجاجية تفصلني عنهم، وأنّهم يتمكّنون من رؤيتي عبرها. ابتسمتُ مجدّداً، وعدّلتُ جلستي.

عندما استيقظتُ مجدّداً، استطعتُ أن أرى السقف وأنواره بوضوح، إذ كان الشريط اللاصق قد أُزيل عن عينيّ. كانوا قد ثبّتوني إلى نقّالة، يحملونني بها. عندما كانوا ينقلونني إلى السرير رغبتُ بشدّة أن أنظر إلى نفسي، وجهدتُ حتّى استطعتُ أخيراً أن أرى انعكاس وجهي على سطح الألمينيوم لخزانة الأدوية قبل أن يضعوا اللصاقات على صدغي. كان يبدو شاحباً نحيلاً، وبدت عيناي غائرتين. ولكنّني خمّنتُ أنّني أستطيع أن أستعيد حيوية مظهري في وقتٍ قليل، لذلك شعرتُ ببعض الراحة قبل أن يُسيّروا التيّار فيّ مجدّداً.

عندما استيقظتُ في الكرسي نفسه، كان ذهني أكثر صفاءً. لم يقم أحد بالصراخ فيّ عبر مكبّر الصوت الموضوع في الغرفة هذه المرّة، وسمعتُهم يتحدّثون مع بعضهم مجدّداً. منذ المرّة الماضية التي كنتُ فيها هنا، اليوم صباحاً أو منذ أسبوع، كنتُ أشغل نفسي بالتفكير بكَ لدرجة أنهكتْني، ولم أعد متحمّسة حتّى لألعابكَ ولمرأى وجهك الشهي. اشتقتُ كثيراً للتدخين، وأسفتُ لأنّني كنتُ أترك أعقاب السجائر في كل مكانٍ في المنزل. وكنتَ تغضب بشأن ذلك، وبشأن الفوضى كلّها، وتصفق الباب وراءكَ. كانت الصغيرة تستيقظ من نومها فزعة، وتصرخ عندما يحدث ذلك. لم يكن الأمر مُبهِجاً، وكنتُ أرى بوضوح كيف أنّك تفكّر أنّك لا تريد العودة إذا خرجتَ.

عاد الصوت للحديث عبر مكبّر الصوت. كان أحدهم يسألني إن كنتُ أعرف أين الصغيرة الآن. قلتُ لهم إنّ هذا وقت درس الباليه، وهي تتحرّك الآن بخفّة في تلك الغرفة خشبية الأرضية، أو تمُسك بالحاجز المعدني، لتجري تمارين الليونة. تذكّرتُ غرفة تبديل الملابس والأحذية الصغيرة مع الجوارب الشفّافة المبعثرة في أرجاء الغرفة. عاد قلبي يخفق بقوّة، وأنا

أتذكّر كيف شعرتُ عندما كنتُ هناك آخر مرّة، لم يُعجبني مظهر عامل التنظيف، وكونه هنا مع تلك الطفلات كلهنّ. باب المدرسة لم يكن مُؤمّناً بشكل كافٍ، وبدا لي أن أيّاً كان يستطيع التسلّل بسهولة. قد تكون هذه الطفلة صغيرتنا نفسها، سيتبعها كما لو أنّها خيط من نور الشمس بشعرها البرتقالي الأجعد، وهي تطفر بخفّة بين الحجرات. طلبتُ منهم بلطف أن يفكّوا وثاقي، لأتمكّن من الذهاب إليها، وأخذها إلى المنزل. لم يستجب أحد. ما يزالون يراقبونني عبر الواجهة الزجاجية دون شكّ. أعدتُ الطلب، وقلتُ لهم إنّها ستكون في خطر إذا لم أقم الآن، وأتوجّه إليها. كانت عيناي تحرقانني، لأنّني بدأتُ أذرف الدمع كما أظنّ خلف هذا الشريط اللاصق، وعاد رأسي يؤلمني بشدّة. حذّرني الصوت عبر المكبّر مجدّداً من الإتيان بأيّة حركة، فاستندتُ على قدميّ، وحرّكتُ الكرسي مرّة أخرى باتجاه مصدر الصوت، وأحسستُ أنّ يديّ قادرتان على التحرّك قليلاً داخل الرباط. سمعتُ صوت باب الغرفة يُفتَح عليّ بقوّة، ولكنّني كنتُ جاهزة للقتال.

فتحتُ عينيّ، لأرى السقف مجدّداً، وهم ينقلونني بسرعةٍ أكثر من المعتاد. أغمضتُهما مجدّداً، رغم الألم الذي شعرتُ به في جفنيَّ، وحبستُ أنفاسي، إذ كنتُ أريد أن ينتهي ذلك كله قبل أن يتمكّنوا من صعقي مجدّداً. لم يكن هناك من داعٍ لاستعجالهم ولتوثيقي بهذا الإحكام، فلم أعد أستطيع أن أفعل شيئاً أصلاً. هل تصدّق ما يجري؟ لم تسمع ما قالوه لي وهم يُكسّرون أضلاعي بحقدٍ في الداخل. قالوا إنّه كان عليّ أن أموت منذ وقتٍ طويل، لأنّني، تخيّل: تسبّبتُ في ذهابها، موتها، بعد أنّ احتجزتُها لشهورٍ في قبو المنزل. قالوا إنّه منذ اختفيتَ، وأنا أُسيء معاملة الصغيرة حتّى تُوفّيتْ. مبالغات فجّة، وأشكّ حتّى الآن أنّها قد تكون من ألعابكَ المقلقة. كلّ ما كان يحدث جرى في ذهني أنا فقط، أنا متأكّدةٌ من ذلك: كنتُ أنظر إليها في الصالة في أثناء التمرين قبل أن آخذها، كنتُ

أرى كيف تطفح رائحة الحليب من وجنتيها، مستثيرة شهية الجرذان. كيف سيقضم وضيعٌ ما، وضيعٌ مثلكَ، رهافتها، ويرميها، ليتسكّع مع واحدةٍ ما من نوعه. كيف ستنكسر وتقعي على ركبتيها فوق خشبة المسرح غير قادرة على الحراك من فرط ألم قلبها. هم لا يعاقبونني، لأنّني أسأتُ معاملتَها، هم مُستفزّون، لأنّني أعرف ما هي، وأحميها من العناصر البخسة، لا كما يفعلون طيلة الوقت مع أطفالهم، أفراخ الجرذان عديمة القيمة. الآن يحاولون النيل منّي، لأنّها لديّ، صفُّوا التُّهم على ورقة لتحطيمي: قالوا إنّني اعتدتُ تقييدها لأيّام متواصلة، وإنّني شوّهتُ حُسنها الذي أعيش من أجله. ينتقمون لأنّني احتقرتُهم، احتقرتُ وضاعتهم، وخبّأتُ ما لديّ. يريدون أن يتشفّوا برؤيتي أنهار، ولذلك كسّروا تلك العصي عليّ، وثبّتوني الآن على سرير الصعق بعد أن مزّقوا ملابسي. في العادة، كانوا يصلونها برأسي فقط، ولكنّهم الآن يُوزّعون تلك اللصاقات كالمجانين على كامل جسدي. يريدون أن يدخلوه بالكهرباء، كما كنتَ أنتَ لتفعل، ولكنّ ذلك لن يحدث طالما أتمكّن من حبس أنفاسي للمدّة الكافية.

جو- دو

"جو – دو"، تقول اللافتة. نظرتُ باهتمام إلى داخل الصالة من قلب الباص الذي أستقلّه. ليس هناك ما يُنبئ أنّ التدريب جيّدٌ، حتّى ولو كانت ملامح المدرّب آسيوية. أودّ، في الواقع، لو كانت لي ملامح، تُتيح لي وحدها أن أُدرّب شيئاً ما. سيكون ذلك عملاً أسهل، أقوله بفخر عندما أتعرّف إلى أحدهم: مدرّبة رقص، أو أيّ شيء.

قبالتي في الباص جلست امرأتان، بدتا من الخليج، تمنيّتُ أن تكون رائحة الهيل فائحة من ملابسهما. كنتُ أودّ أن أوحي لهما بأنّني أستطيع التحدّث إليهما بالعربية، ولكن، لم تعيراني اهتماماً. صحيح أنّني أرتبك عندما يسألني أحدٌ ماذا أعمل هنا، ولكن، لو أُعطيتُ القليل من الوقت فقط، فإنّني أستطيع أن أجعل الأمر يبدو مشوّقاً للغاية: أنثر الطحين على الطاولة، أُسوّي العجينة قبل وضعها في الفرن.

عندما عدتُ إلى المنزل كان الوضع مملاً كالعادة، لولا وجود ذلك الشابّ الذي يظهر من نافذة المبنى المقابل، واقفاً دائماً قبالة النافذة بأناقة، مرتدياً وشاحاً صوفياً مقلّماً. مرّت الفتاة المقيمة معنا في المنزل من المطبخ، حيث كنتُ جالسة. كنتُ أودّ أن أفتعل تصرّفاً لطيفاً، لأنّني أظنّ أنّني قلّلتُ من قيمة لوحاتها في الليلة الماضية. سألني حبيبها وصاحب المنزل إذا كنتُ أريد ملء المساحة الفارغة من جدار غرفتي برفوفٍ للأغراض، أو بلوحات من رسمها، فأجبتُه على الفور، دون تفكير:

"رفوف". في الواقع، لم أكن متجنّية، إذ كانت الرسوم بشعة، ولكنّ الفتاة سمعتْ ما قلتُه. كان ذلك موقفاً محرجاً من النوع الذي يصعب التحايل عليه، أو ربّما يستطيع الأشخاص الاجتماعيون التحايل عليه بردّ سريع. بالنسبة إليّ لن أتوصّل إلى الردّ اللائق المناسب إلا بعد مضي يوم كامل على الموقف والتفكير فيه مطوّلاً.

كانت هذه فرصة، لأخوض حديثاً لبقاً، قلتُ لها: "هل غيَّرتِ لون شعركِ؟". مدّتْ يدها إلى رأسها، وهزّتْ رأسها بالنفي. تابعتُ رغم الإحراج: "يبدو لامعاً". لم تردّ، فعدتُ للفرجة على الشبّاك. شعرتُ بضرورة أن أكتب رسالة للشابّ حتّى لا أجنّ، ويسيطر الموضوع عليّ إلى درجة متعبة. تناولتُ ورقة صفراء مخطّطة وقلماً، كتبتُ: "عزيزي الشابّ الواقف على النافذة..". توقّفتُ قليلاً، ثمّ أضفتُ: "وشاح جميل". اتّخذت وضعية جلوس جدّيّة، وتابعت: "أظنّ أنّني أعرف لم لا تبارح غرفتكَ، وتخرج للقاء الآخرين. عندما كنتُ صغيرة، وكنتُ أقيم مع عائلتي في موسكو، في أثناء عمل والدي هناك، كان أهلي يُرسلونني إلى جيراننا للّعب مع ابنهم، وهو صبيّ من عمري، كانت هي العائلة العربية الوحيدة في الحيّ. لكن، في كلّ مرّة كانت والدته تفتح لي الباب، كان يهرب للاختباء في خزانة الملابس. كنتُ حينها أعود إلى المنزل، وألعب وحدي. عرفتُ بعد ذلك أنّه يعاني من اضطراب سلوكيّ، وأنّ محاولة أهله إجباره على اللعب معي كانت تزيده توتّراً. لذلك لا تنزعج وتختبئ إذا دخلتُ منزلكم، فسأعتني بكَ جيّداً".

دخلتُ إلى موقعٍ لقراءة الطالع عبر أوراق التاروت قبل أن أنام، ظهرت لي صورة الرجل المشنوق في رأس الأوراق. هذه إشارة سيّئة. رنّ الهاتف، كانت أمّي. أخبرتْني أنّ الوقت لن يطول قبل أن تتمكّن من تدبّر أمر التأشيرة،

واللحاق بي إلى هنا. كنتُ أشعر بالخوف، لأنّ البيت خلا الآن، وبقيتُ وحدي. قلتُ لها: "أظنّ أنني يجب أن أجد رياضة أمارسها". قالت إنّ ذلك حسن. قلتُ: "أفكّر أن أحترف الجودو". صمتتُّ بعد ذلك منتظرة ما ستقوله، لأعرف ما إذا كان عليّ أن أتظاهر أنّني أمزح.

الخامسة صباحاً وقتٌ مزعج، بالأحرى لا يجب أن يُسمّى وقتاً أصلاً. لا وجود للضوء بعد. من الباص راقبتُ محلّ الجودو مجدّداً عندما مررنا من أمامه، كان مغلقاً. رششتُ الطحين على الطاولة، وأنا أحاول أن أجعل الأمر ممتعاً. "في مخبزنا، نمتلك ثقافة عمل حيوية للغاية، لذلك نطلب موظّفين يمتلكون خبرة ٥ سنوات، وقادرين على..." هكذا قرأتُ في إعلان الوظيفة قبل أن أتقدّم. لم أفهم ما المقصود بثقافة عمل حيوية تماماً، حرتُ بمَ سأجيب في المقابلة الشفهية على سؤال: "لماذا تريدين هذا العمل؟" نظرتُ إلى صورة زاهية لإحدى مخبوزات المحلّ الطازجة، موضوعةٍ على الجدار فوق رأس الرجل الذي يُجري معي المقابلة، وتحدّثتُ عن روعة الانضمام إلى أسرة دافئة في مكانٍ، سأتعلّم منه الكثير، ولذلك أنا هنا الآن.

كان ذلك مرهقاً، إرسال السيرة الذاتية للعمل، وطلبات استئجار غرفة: "شابّة في الخامسة والعشرين، أبحث عن فرصة". كنتُ أحاول أن أؤجّل الإجابة عن سؤال: "من أين أنتِ؟" إلى النهاية دائماً. شعرتُ أنّ صاحب العمل أو الشقّة قد يظنّ أنّني كئيبة، أو أنّ لي زوجاً قاسياً، إذا أفصحت عن جنسيّتي. كذلك انزعجت لأن سيّدة قالت لي في رسالة: "أنا متعاطفة مع وضع بلدكِ، ولكنني أريد أن أؤجّر الغرفة لمَن هو أكبر عمراً".

العمل ليس مسلّياً دائماً، ولكنّه قد يتضمّن حوادث مبهجة. منذ أيّامٍ صادفتُ هنا صديقة قديمة من البلد، كنتُ أخاف عليها كثيراً فيما مضى، إذ كانت في غاية الرقّة والشحوب. عندما صادفتُها أمام المخبز

كانت تحمل على يدها طفلتها حديثة الولادة. لم أبح بمخاوفي القديمة عليها، لكنّني سعدتُ، إذ كانت تبدو أكثر شراسة، والطفلة كذلك. ركّزتُ نظري في عيني الأمّ تماماً، ولم أتأوّه. عندما غادرتا، لمستُ ذراعي حيث عضّتْها الطفلة. تنهّدتُ باطمئنان، لأنّ خوفي عليهما قد زال. انتهزتُ فرصة خلوّ المخبز من الزبائن، لأمسح مكان قضمة الطفلة بطرف المريلة، ومن ثمّ أخرجتُ دفتري من جيب المريلة، لأكتب رسالة أخرى للشابّ أسود الشعر بعد أن تذكّرتُ أمراً مهمّاً: "عندما أكون في العمل، أتساءل إذا كنتَ تقضي الوقت واقفاً أمام النافذة أيضاً. أشعر أنّ الوقت اقترب، لآتي وأهتمّ بكَ. صحيح، لنْ يكون هناك ما تقلق بشأنه، لن تشعر بالغيرة من أيٍّ من أصدقائي الذين رأوا الكثير في حياتهم، ربّما على عكسكَ، وهو ما سيُحرجكَ، إذ ستظنّ أنّني سأقارن بينكَ وبينهم. لن تكون هذه مشكلة، إذ سأكفّ عن التحدّث إلى أيٍّ منهم".

في طريق العودة إلى المنزل، كنتُ أشعر بالقلق، شعرتُ بأنّ أحد ركّاب المترو يحدّق فيّ دون انقطاع. لم أنظر إليه، لئلا تبدو بادرة لتشجيعه. بعد مغادرتي المحطّة، وفي طريقي إلى المنزل، كنتُ أشعر بوضوح بأنّه يتعقّبني. لم أستدر، لئلا أدفع باللحظة الحاسمة إلى ذروتها والشارع المعتم خالٍ من الناس. أكاد أسمع أنفاسه وحفيف المفاتيح في جيبه. لمَ لم أسجّل في صفّ الجودو ذاك؟ كان من الممكن أن أهشّم وجه هذا الجرذ على الجدار الآن. من منعطفٍ في الشارع، خرجتْ فجأة مجموعة من الشبّان والشابّات يتحدّثون بصوت مرتفع، ويبدون مخمورين بعض الشيء. أسرعتُ، لألتحق بهم، وتذرّعتُ بضياعي عن الطريق، لأتمكّن من المشي معهم قليلاً. سألوني عن مكان إقامتي، ومن أين أتيتُ أصلاً. أجبتُهم باقتضاب، لأنّ غضبي كان يتصاعد أكثر فأكثر، إذ ما معنى أن أكون وحدي طيلة الوقت؟ استأذنتُهم عندما وصلنا إلى البناء الذي أُقيم فيه،

إذ لم يكن الموضوع يحتمل المزيد من التأجيل. لا داعي لأن يحتمل كلّ منّا وحشته وحده بعد اليوم، إمّا أن أحمله على مرافقتي في الأزقة، أو يحملني على الجلوس في المنزل والتحديق للأبد في العالم من خلال النافذة. عددتُ الطوابق حتّى وصلتُ إلى المنزل المُفترَض. طرقتُ الباب بلطف في البداية، ثمّ بإصرارٍ أكثر. فتحتْ لي البابَ سيّدةٌ مُسنّة، شقراء قصيرة القامة، ببيجاما بنية مخملية ونظّارة طبّيّة سميكة. سألتُها عن الشابّ الذي يعيش هنا، وقلتُ إنّني أريده لأمرٍ هامّ. ردّت عليّ بلغةٍ، لم أفهمها، محرّكة يديها في الهواء. قلتُ لها إنّني أفهم حالته تماماً، ولا داعي للقلق. بدأت تصيح، وتحاول منعي من الدخول، فقلتُ لها إنّ هذه الحالة ليست سبباً لاحتجازه في غرفته، وإنّني من السلطات المخوّلة سَحْب الأبناء من أهلهم، إذا ثبت سوء معاملتهم. دفعتُها، ودخلتُ متّجهةً إلى الغرفة بثبات. قبل أن أدفع باب الغرفة بيدي، شعرتُ بألمٍ صاعق في مؤخّرة رأسي. تحسّستُه بيدي، ثمّ نظرتُ إليها. استدرتُ بهدوء نحو العجوز المرتعدة - وأرجو أن تسامحني - لقد كنتُ غاضبة للغاية، ولم يكن من المفترض أن تحاول والدتكَ قتلي بمزهرية بائسة. لولا أن تدبّرتُ الأمر، لما كان بالإمكان أن أركض بعد ذلك نحو غرفتكَ، وأن أراها لأوّل مرّة من الداخل. على مشجبٍ قبالة النافذة، علّقوا وشاحك الصوفي الأنيق، ولم تكن أنت موجوداً. لكن، كما قلتُ لكَ، أنا أعرف ما ينبغي عليّ فعله. أعرف أنّكَ مختبئ في خزانة الملابس، وقد تكون مرتاعاً ممّا حصل قبل قليل. وأنا أجري نحوكَ، كما لم يحدث من قبل.

بضعة أمور قد لا تعرفها، عن موسم الجفاف

في البداية، لم تكن الأمور سيّئة على هذا النحو في البلدة، كنتُ أستطيع دون مشقّة أن أعثر على ما يكفي من الماء للاستحمام. في ليلة عرسي، تمكّنتُ بسهولة من حجز موعدٍ في الحمّام. كان الجفاف قد بدأ، ولكنّ هذه الأمور كانت ما تزال في متناول اليد، مثل أشياء كثيرة. الآن ليس الأمر كذلك، وقد جعلنا الجفاف قوماً فاسدين.

رغم سوء الظرف، عجبتُ لأنّ المتوكّل تقبّل بسهولة اقتراح قريبته، بأنّ أقوم بالاستحمام لدى البقّال في دكّانته. قال إنّ ذلك قد يسهّل بعض الأمور بيننا. الأمور التي تعني استعادة ما يُفترَض أن يفعله الأزواج، ولكنّه يتحدّث عن الموضوع دائماً بالإيحاءات: "بعض الأمور، الاقتراب، أن نكون معاً". كنتُ أنا السبب في أنّنا لم نعد نفعل ذلك، ها أنا أتحدّث مثله الآن. لم يكن السبب هو أنّني أنفر منه، وقد سُررتُ سابقاً عندما علمتُ أنّ المتوكّل تقدّم لخطبتي. عندما زارنا في المنزل مع أهله، تضرّعتُ إلى الربّ أن يتمّ هذا الزواج. كان، مثل الآن، قليل الكلام. أمّي علّقت في ذلك اليوم أنّها إذا كانت تخشى شيئاً، فهي تخشى ما يخفيه أولئك الصامتون. الآن لا أشعر برغبة في أكون معه، لأنّني أشعر بالسوء من أني لم أستحمّ منذ وقتٍ طويل. ولذلك رأى أنّه لا بأس أنّ أذهب للاستحمام في بقّالية البلدة التي يستطيع صاحبها تأمين الماء حتّى الآن، وبذلك أضاف مورداً جديداً إلى أرزاق البقّالية، وهو بيعُ مواعيد للاستحمام.

حثّني على الإسراع في المسير، وقد كنتُ أتعثّر بثوبي وما أحمله من ملابس نظيفة. قال لي إنّ وقت الموعد محدّد، وإنّ عليّ ألا أُطيل وقت الاستحمام. فكّرتُ أنّه يريد أن يُنبّهني أيضاً إلى أن أرتدي ملابسي كلّها عندما أخرج، لئلا يراني أحد، ولكنّه خجل من قول ذلك، فقلتُ له إنّني سأحرص على ارتداء ملابسي كلها قبل أن أفتح باب الحمّام. نظر إليّ قليلاً كأنّه غاضب ممّا قلتُه، ولكنّه لم يتحدّث، بل استمرّ بالمسير.

كان البقّال جالساً على كرسيّ خشبي مقابل دكّانه، مرتدياً جلباباً أبيض مَكسوّاً بشرائط صفراء طولانية. انحنى المتوكّل عليه متحدّثاً إليه بصوتٍ خفيض، ووضع في يده ثلاث قطعٍ نقدية. قام البقّال عندها، ومشى أمامي، ليقودني إلى مكان الحمّام. لم يأت المتوكّل معنا. أظنّه كان يودّ ذلك، ولكنّه ارتبك في كيفية التصرّف الصحيح، إذ قد يكون دخوله معنا غير لائق تجاه البقّال الكهل، وشكّاً فيه، أو ربّما لم يكن مهتماً بالمجيء أصلاً. لم أعد أعرف ما يشعر به تجاهي تماماً في الآونة الأخيرة.

صعدنا الأدراج، لنصل إلى البقّالية، ومن ثمّ إلى الحمّام الذي كان غرفة خشبية في الركن الخلفي منها. تضمّن الحمّام وعاءً نُحاسياً، فيه طاسةٌ حديدية صغيرة. دلّني على كيفية فَتْح أنبوب الماء الذي يصبّ في الوعاء، وغادر. كانت الألواح الخشبية التي صُنع منها الحمّام تُتيح مساحة لرؤية الخارج. لم أكن متأكّدة إن كان الموجودون في الخارج قادرين على رؤية داخل الحمّام بوضوح، كما أستطيع الآن أن أرى طاولة المحاسبة في البقّالية والرفّ الخشبيّ فوقها، والذي صُفّت عليه عُبوات السَّمْن. جرّبتُ الماء قليلاً، وتحسّستُ حرارة الخيط الجاري بيدي، كان دافئاً قليلاً. أغمضت عينيّ، وأزلتُ ملابسي محاولةً ألا أفكّر بالبقّال، وما إذا كان قادراً على رؤيتي من خلال الألواح الخشبية أم أنّ المتوكّل يتحدّث إليه خارج البقّالية

الآن. أبقيتُ عينيّ مغمضتين فقط، وأكملتُ الاستحمام. جفّفتُ نفسي قليلاً، وأسرعتُ لارتداء ملابسي النظيفة التي احتفظتُ بها طويلاً حتّى هذه المناسبة. استغلّيتُ الفرصة، لأنظّف ثوبي القديم المتّسخ أيضاً.

عندما فتحتُ الباب، وجدتُ البقّال واقفاً ينظر إليّ. انزعجتُ، لأنّ ملابسي قد تكون ملتصقة بي قليلاً، بسبب الماء. إذا حدثت مشكلةٌ الآن أظنّ أنّ الوضع بيني وبين المتوكّل سيزداد سوءاً في الأيّام القادمة. أشعر منذ مدّة بأنّه ينتظر أيّ ذريعة، ليحملني، ويُعيدني إلى منزل والديّ. لم أكن أريد ذلك، غالباً سأُمنع من الخروج، بينما يستطيع هو جلب زوجة أخرى على الفور.

ركضتُ بسرعة متجاوزة البقّال، محاولة ألا يتلامس جسمي معه بأيّ نقطة، رغم أنّ الردهة ضيّقة جداً. عندما خرجتُ، رأيتُ المتوكّل ينتظر في أسفل الأدراج التي كان بعض الناس قد اتّخذوا منها أماكن للجلوس. غضبي من تصرّف البقّال لم يكن قد زال بعد، أردتُ أن أفعل أيّ شيء، لأردّ على إزعاجه لي. اقتربتُ من امرأته التي وقفت تدخّن على إحدى عتبات درج البقّالية، وأنبأتُها أنه يحدّق بالمستحمّات. استدارت إليّ بابتسامةٍ واسعة، كشفتْ أسنانها البيضاء المحاطة بطلاء شفاهٍ ورديّ زاهٍ: "هل ذلك صحيح؟". هنا كان بعض الشبّان قد قاموا من جلستهم على عتبات الدرج، وقد انتبهوا أنّ مشكلة على وشك الحدوث. أمسكتْ بي من كتفي، وابتسمتْ لي مطمئنةً. ثمّ رفعتْني قليلاً بخفّة مدهشة، بالنظر إلى بنيانها الهزيل، ورمتْ بي بسهولة بالغة باتّجاه أحد أولئك الشبّان، والذي حملني من كتفيّ، وهو يضحك، وسلّمني إلى شابّ آخر، يقف في الأسفل، حتّى وصلتُ إلى نهاية الدرج، حيث رماني الشابّ الأخير أرضاً، وتبعثرتْ أغراضي. ساعدتُ نفسي على الوقوف، لأتمكّن من الوصول إلى

المتوكّل، ولكن امرأة البقّال كانت قد وصلت إليه. رأيتُها تنفث الدخان من بين شفتيها الورديتين، وتهمس في أذنه. كان جمعٌ من الناس قد تجمهر حولنا. وكنتُ أعرف أنّ هذه هي النهاية، لا يمكن أن يُبقي زوجي عليّ بعد ذلك. اقترب رجل شرطة من الجمع، ليستفهم عن الأمر، ولكنّ المرأة نفسها بادرتُه قائلة: "لقد فضحتنا هذه المرأة". لم يعرها الاهتمام، وتابع طريقه، ليصل إليّ من بين المتجمّعين. اعترضتْه واحدة من فتيات القرية متعلّقة برقبته، ولكنّه أبعدها عنه، وتابع مسيره مصمماً أكثر حتّى يصل إليّ. لا فائدة من ذلك، فكنتُ أعرف أنّهم لن يتركوه. رأيتُ إحدى نساء البلدة تركض نحوه مسرعةً، مصطحبة طفلتها، وتضع يد الصغيرة في يده. ابتعدتْ راكضةً وهي تشير إليه: "لدينا هنا شرطي قليل أدب". تضاحكت النساء من حوله. لن يمضي نهار الغد قبل أن يُنقَل الشرطي من البلدة. لم يكن مكترثاً، واستمرّ بالنظر إليّ من مكانه وهو ممسكٌ بيد الصغيرة. كان يعرف الآن بالضبط ما الذي جرى معي، ويعرف كم هم قومٌ فاسدون.

الخوذة الزرقاء

للوهلة الأولى لم يكن الأمر سيّئاً، سحبتُ الدخان من اللفافة بشجاعة، وانتظرتُ. في اللحظة التي أردتُ فيها أن أستدير إليه، لأخبره أنّ شيئاً لم يحدث، كان ما يشبه تيّاراتٍ كهربائية قد عبر جمجتي بقوّة. استقرّ الأمر بعد ذلك، لأشعر وكأنّني أعتمر خوذة سائق سيّارة سباق، تتضمّن دارة كهربائية زرقاء، تعبر الدماغ بانتظام. أنزلتُ رأسي باستسلام، ورفضتُ أن أرفعه. كان الباب قد انتقل في هذه اللحظة من مواجهتي إلى يميني، وبدأ يسيل برفق على الجدار.

قال لي: هل أنتَ بخير؟ قال أيضاً: لا داعي لأن تبقى جالساً، بإمكانكَ الاستلقاء. كان لهذه الجملة وقعٌ سيّئٌ، إذ بدأتُ أفكّر لمَ يريد الآن منّي أن أستلقي؟ وما الذي يمنعه من الاعتداء عليّ، وأنا دون قدرة على التحرّك؟ ما تبقّى من قوّة لديّ كان مُنصبّاً على أن أبدو بحالةٍ متماسكة.

وقت عودة صاحب المنزل قد حان الآن. ما سيحدث كان جلياً لي: سيعود صاحب المنزل، وسينادي عليّ من الصالون. لن أستطيع أن أردّ، لأنّ لساني متخدّر أيضاً. سيدخل إلى الغرفة، ويجدني بهذه الحالة. سيقوم بنقلي إلى المستشفى، وهناك سيكتشفون أثر المخدّر، وربّما يطلبون لي الشرطة، وأنتهي في السجن. سيتفنّن رجال الشرطة بإهانتي، مذكّرينني بأني لاجئٌ. وبعد ذلك، سيطردني الرجل من المنزل دون شكّ.

في اللحظة التي بتُّ فيها قادراً على التكلّم، وجدتُ نفسي أوبّخه:

- إيّاك أن تعطيني إيّاه مرّةً أخرى.

- هي دقائق فقط، لا تتعدّى الذروة ١٠ دقائق.

- كم مرّ منها؟

- ٤

- بقيت ستّ دقائق؟ ابدأ بحسابها.

- بدأتُ.

- هل سبق وأن مات أحد بسبب هذا الشيء؟

- نعم، ولكن مَن قاموا برمي أنفسهم من النوافذ فقط. لا تخفْ.

- كم بقي؟

- العديد ممّن لم يقوموا برَمْي أنفسهم بعد.

- كم بقي؟

- آسف، ٥ دقائق فقط بعد.

- لا أريد أن أصبح مُدمناً.

- لمَ لا؟

- لن يأخذني أحدٌ على محمّل الجدّ بسبب ذلك. ثمّ كيف لمَ لا؟ هل هذا سؤال حتّى؟

- نعم.

- ربمّا يجب أن أصبح مُدمناً. اسمع، إذا مرّت هذه الدقائق دون أن أموت، هل تعرف ماذا سيحدث؟

-لا. طيّب الآن اهدأ، لم لا تستلقي قليلاً؟

- لماذا تكرّر قول ذلك؟

لن أكرّر قول ذلك، ولا أيّ شيء آخر. لستَ بعد اليوم مضطراً لأن تستلقي. من المؤسف أن تضيّع الوقت بعد اليوم بالاستلقاء. من الأفضل أن تقوم الآن، وتذهب في جولة، لتطّلع على الأمور. شبّاك المطبخ يطلّ على هذه الحجرة وشرفتها. اذهبْ إلى هناك، وراقب الحجرة، وأنا سأظلّ جالساً هنا، سيكون بإمكانك أن تراني.

لكنّك لا تراني! لقد دخلتَ في مضمارٍ جديد الآن بخوذتكَ الزرقاء. بمجرّد دخول المطبخ، حيث كان بإمكانكَ من قبل أن تطلّ على حجرتكَ هذه، وتراها مع شرفتها من خلال الباب المفتوح، ستجد أنّكَ تسير فقط على خطوط خارطتكَ الجديدة التي تنظمها الدارات الكهربائية السائرة عبر خوذتكَ.

انظر! من هذه النافذة نفسها تستطيع الآن أن ترى غرفتكَ القديمة سرداباً طويلاً ضارباً في مساره إلى نقطة بعيدة لا تراها، إنّها مضاءة بنورٍ ماديّ أنيق خافت غير مؤذٍ لعينيكَ. لا يمكنكَ رؤيتي فيها، قلتُ لك إنّ رؤياكَ خاصّة بكَ الآن. عيناكَ لا تنتظران الآن انعكاس الأشياء الثابتة أمامهما، لتنقلا الصورة إلى دماغكَ، العكس هو ما يحدث. في دماغكَ الكثير من الصور التي ستلبسها للعالم من حولكَ. كيف يمكن لكَ أن ترفض؟ هل كانت الشجرة في باحة الدار أسفل النافذة تحمل قطعاً زجاجية ملوّنة، تعكس صورة النهار من قبل؟ هل كان لضوء الشمس رائحة؟

أنت حيّ أكثر من أيّ وقتٍ مضى، حاول العودة للغرفة الآن. الخطوات لن تلزمكَ، فأنت لم تحرّك قدميكَ عن البلاط البارد منذ اللحظة الأولى التي وضعتَ بها اللفافة بين شفتيكَ. ما أزال هنا منذ البداية. ألم أقلْ

لكَ أنتَ حيّ أكثر من أيّ وقتٍ مضى؟ لا حاجة لأن تعتمد على أطرافكَ الميتة عديمة الخيال، لا حاجة لأن تبتئس لوجود أولئك الأشخاص كلهم الذين لن تستطيع مقابلتهم ومَن رحلوا دون أن يصلوا بكلمتهم إلى الدنيا كلها، وأنت تشعر بالذنب لذلك، ليس ذلك خياراً. بإمكانك أن تُمسك ورقة شجرة، وتنظر في شكلها جيّداً: المنبت والتقاسيم. لقد وصلتْ إليكَ أفكارُ الجميع، وعرفتَ كل ما كان يُقلقكَ غيابه عن حيواتهم كلها مجتمعة. لستَ مضطراً حتّى لأن تقوم من على سريركَ، الورقة تتوهّج الآن في عقلكَ أكثر اخضراراً من قبل. هي الآن تتوهّج عالقةً في مساراتكَ الحيّة، لا على جذع شجرة ميت في الخارج. نسغها هو الحيوية الكاملة التي تتّقد في عقلكَ، لذا، لا خوف من أن تذبل.

لن تشعر بالخوف بعد قليل، عندما سيأتي صاحب المنزل، ويجدكَ متيبّساً بارد الأطراف في غرفتكَ. عندما يحملكَ بمساعدة آخرين، وينقلكَ إلى المستشفى، عندما يتجمّع رجال الشرطة بوجوههم الكئيبة فوق رأسكَ. هم الآن يسيرون في بُعدٍ آخر، لا الوصمة ولا الألم ولا الحرج تعنيكَ بشيء، وأنت تسير في مضماركَ. لن تستعيد بؤسها إلا بعودتكَ إلى ذلك التقاطع الصغير في الوقت والمكان الذي خلّفتَه وراءكَ. حتّى أذية أحدٍ لكَ وعبثه بجسدكَ، كما تخشى دائماً، مَنسيّ في ذلك التقاطع، سيُؤلمكَ ذِكْره فقط، إن أردتَ لنفسكَ العودة. تشعر أنّ رئتيكَ كيسان ورقيّان، يصغر حجمهما الآن، أعرف ذلك، فقد رأيتُ علامات سوء حالتكَ قبل أن أغادر المنزل. لم أتركَكَ عن سوء نيّة، لتختبر وحدكَ شعور أن تخذلكَ تلك العضلة الصغيرة التي في صدركَ للمرّة الأولى، كنتُ أريد أن أتمّ صنيعي معكَ، أردتُكَ ألا تتألّم لخسارة ما كسبتَهُ، تقاطع أزمنة جديدة طرية المَلمس مع أمكنة مرسومة بالإنارة. ذلك ما كان يجب أن نكون عليه، لا أن تكون سجيناً في هذا البُعد إلى الأبد، وأن تتسوّل حفناتٍ بائسة من المخدّر

طيلة حياتكَ، إذا نجحتَ في تجاوز عشر دقائق دون أن تجنّ أو تموت. هذه ليست كلماتي حتّى، أنت حُرّ الآن أكثر من أيّ وقت مضى.. أنا في البُعد الحقيقي للأشياء أكثر دمامة وسخفاً وانعداماً للجدوى ممّا أبدو عليه في مضماركَ المضيء. لقد أوشكت الدقائق العشر على المضيّ في ساعتي أنا، لكنّها عديمة الجدوى لديكَ أنتَ. لا تخفْ. ربمّا ستفتح عينيكَ في غرفة مشفى مضاءة، وربما تعود إلى هنا بتكاسل في الدقيقة التاسعة، لتؤنّبني على إعطائكَ هذه المادّة. لكن، قد يكون صحيحاً أنّ رئتيكَ كيسان من ورق والعضلة النابضة في صدركَ تخذلكَ للمرّة الأولى. أتمنّى ألا تتألّم.

جملة أفكار غير فعّالة لقضاء الوقت

إمضاء أوقات الانتظار أمرٌ صعب، كان يجب أن يجد أحدٌ ما حلاً للموضوع.

الوقت الآن مناسب للتجربة قبل أن أقوم بتعميم ما توّصلتُ إليه بشأن ذلك، رحلةٌ تستغرق ٩ ساعات من الزمن. قبل أن يغادر الباص،كان هناك شابّ يقبّل حبيبته مودّعاً. على ذراعه وشم أفعى. لقد كانت الفتاة من نوع الأفعى بالتأكيد، تستطيع أن تُدرك ذلك بسهولة. سألتُ سيّدة ستّينية عن وجهة الباص، لأتأكّد أنّني لم أخطئ في الرحلة، كانت ترتدي حذاءً رياضياً لامعاً، وقرأتُ على حقيبتها: فريق السباحة الوطني. لابد أنّها أكبر ممّا تبدو؛ ٧٠، ٨٠، ٩٠. كانت قد تجاوزتْني بسرعة راكضة خلال سنواتها الخفية هذه التي لا يمكن لأحد أن يخمّنها. نظرتُ بأسف إلى ظفر إبهامي، فقد كُسر من حمل الحقيبة. أزلتُ الجزء المكسور كلّه، ووضعتُه في السلّة. نظرتُ مرّة أخيرة إلى المحطّة، كانت قبالة حجرة للهاتف، تحمل ملصقاً إعلانياً، يصوّر حصّالة نقود على شكل خنزير، يجاورها تمثال قديم لشابّ مجنّح، يحمل بيده حمامة مَلويّة العنق، ويرفعها في وجه العالم. دوّنتُ في مفكّرة الهاتف وصف هذا التمثال، لأبحث عن قصّته فيما بعد.

في الباص، سألتُ الفتاة الجالسة بجانبي، إذا كانت تمانع أن أجرّب لعبتي. قالت إنّها لا تمانع، وإنّها على كل حال، ستنزل في الوقفة القادمة بعد ساعتين، ولن ترافقني طيلة الطريق، وأكّدت أنّ ابتكار شيء للتخلّص

من المَلَل أمرٌ إنساني ومهمّ. شعرتُ أنّها تجاملني فقط، إذ لم تبدُ متحمّسة كثيراً. نظرتُ إلى الساعة، وكانت تشير إلى الثانية عشرة ظهراً. أخرجتُ الورقة من جيبي، وفتحتُها لأبدأ.

هي متاهة مصمّمة بشكل دوائر متداخلة، عليكَ أن تجد طريق الخروج، وتنتبه إلى أية إشارة. تتطلّب اللعبة أن تكون حسّاساً للإشارات، فبعض الحجرات التي تصادفها في طريقكَ قد تحمل مغامرات، تُغري اللاعب بالتوقّف عندها قليلاً، وبعضها قد يُعيده إلى نقطة البداية على الفور، وبعضها مجهول النتائج حتّى بالنسبة لي. أخرجتُ القلم من جيبي، ووضعتُه عند نقطة البداية.

صمّمتُ المتاهة على نحوٍ بالغ الأناقة. اخترتُ لها جدراناً حجرية مَكسوّة بالأغصان المتسلّقة، إذ ظننتُ أنّ ذلك أجمل، وكذلك يمكن أن يحيّر اللاعب، لأنّه متكرّر، ومن الصعب أن يجد علامة على الجدران تدلّه إن كان قد عبر هذه الطريق من قبل. بالمناسبة، يمنع منعاً باتاً أن يقوم اللاعب بترك علامة على الجدار، وإلا ستكون هذه إشارة للاستسلام، وستلفظه المتاهة خارجها.

عندما بدأتُ تجربة المتاهة، قرّرتُ اعتماد قاعدة شهيرة في المتاهات، وهي وضع اليد اليمنى أو اليسرى على الجدار المجاور لها، والسير بمحاذاة هذا الجدار طيلة الوقت، ممّا سيختصر الكثير من العناء. بعد قليل، ظهرت غرفة مفتوحة في الجدار المقابل، فقرّرتُ أن أتخلّى عن القاعدة قليلاً، لأتذكّر ما يوجد في هذه الحجرة. وجدتُ مرآة كبيرة فقط، وتذكّرتُ أنّني صمّمتُ هذه النقطة للتلاعب بأعصاب اللاعبين وتضليلهم. كما هو مفترَض: استغرق منّي الوقت ٣ ثوان من التحديق بانعكاسي على المرآة حتّى بدأ يشحب لونه. أغمض عينيه، وبدا مزرقّاً قليلاً. قال إنّ التناظر أهمّ

سمة من سمات الجمال. أثنيتُ على هذا الرأي. قال بعدها إنّ العبث بذلك لم يُخلّف يوماً إلا الحوادث السيّئة. استفسرتُ عن هذه الحوادث، لكنّ السيّدة التي تُمثّلني في المرآة كانت تبدو في غاية الشحوب، واكتفت بالإشاحة بيدها، والاستدارة إلى باب الحجرة الذي في المرآة، والخروج منه. كانت المرآة فارغة الآن.

أوقفتْني الفتاة الجالسة بقربي عن اللعب، منبّهة إيّاي أنّنا وصلنا إلى محطّة الاستراحة الأولى. ابتهجتُ، لأنّني أستطيع شراء القهوة، وأحببتُ أن أتعرّف إلى هذه المدينة الجديدة. في الأسفل، كان الشابّ يقبّل حبيبته مجدّداً، على ساعده وشم أفعى. تستطيع أن ترى أنّ الفتاة أفعى بالفعل. لا تبدو هذه المحطّة مختلفة عن السابقة، حجرة الهاتف موجودة مع ملصق إعلاني، يحمل صورة حصّالة الخنزير، بقربها تمثال لشابّ مجنّح، يرفع بيده حمامة مَلوية العنق. ابتعتُ كوباً من القهوة وخبزاً بالمربىّ، لأنّني وجدتُ نفسي أتضوّر جوعاً رغم أنّني تناولتُ الطعام قبل الرحلة بقليل. وأنا أرمي أوراق الطعام انتبهتُ إلى أنّ ظفري المكسور في مكانه مجدّداً. أزلتُ الجزء المكسور، ورميتُه في السلّة. رأيتُ السيّدة الرياضية المسنّة نفسها تصعد إلى الباص، فصعدتُ بدوري سريعاً، لئلا أتأخّر.

عندما تحرّك الباص، أمسكتُ القلم، وعدتُ به إلى اللعبة. تابعتُ من حيث انتهيتُ آخر مرّة، وعدتُ لتطبيق قاعدة اليد الواحدة، لأتمكّن من الخروج من المتاهة بسرعة. من بعد غرفة المرآة، اخترتُ الجدار الأيمن، وظللتُ سائرة بمحاذاته حتّى قادني إلى فسحة دائرية، وضعتُها في قلب المتاهة. في هذه الفسحة، كنتُ قد وضعتُ فخّاً مميتاً للاعبين: صندوقاً خشبيّاً يتضمّن رأساً مقطوعة لمُقاتل. إذا انتاب الفضول اللاعب، وقام بفَتْح الغطاء أو تحريك هذا الصندوق من مكانه، سيخسر اللعبة، لأنّ الدم سيتدفّق دون انقطاع من الصندوق، ويغمر المتاهة.

هل يعني ذلك أنّ القاعدة هي ألا يقوم اللاعب بفتح أيّ صندوقٍ على الإطلاق؟ كلا بالطبع، بإمكان اللاعب فتح أيّ صندوق يريد، ولكنّ المهمّ هو أن يعرف بحدسه إذا ما كان عليه أن يقوم بفعل شيء ما، أو يترك الصندوق في مكانه دون أن يلمسه، كما هو الحال في هذا الصندوق. بعد أن تركتُ هذه الحجرة، وسعيتُ في طريقي، لأصل إلى النهاية، وجدتُ أنّني ارتكبتُ خطأ ما، إذ وجدتُ نفسي مرّة أخرى في حجرة المرآة التي كانت الآن فارغة من أيّ انعكاس. ربّما بدّلتُ يدي بالخطأ على جدارٍ آخر. كان الوقت قد حان على كل حال للنزول في الاستراحة القادمة. لم أكن بحالٍ جيّدة هذه المرّة. الشابّ ذو وشم الأفعى ما يزال يقبّل حبيبته هنا أيضاً، والسيدة الرياضية تتناول كعكة أمام الباص. حجرة الهاتف مع ملصق الحصّالة موجودة، وكذلك تمثال الشابّ المجنّح. شعرتُ بوجوب الخروج من المحطّة، لأرى أشياء جديدة، فتبعتُ إشارة لوحة الخروج، ومشيتُ في هذا الاتجاه لدقائق قبل أن أكتشف أنّني ارتكبتُ خطأ، وأنني في الحقيقة قمتُ فقط بالالتفاف، لأصل إلى المكان نفسه قرب الباص. سألتُ رجلاً واقفاً في المحطّة، فأكّد لي أنّني سبق وأن سرتُ في الاتجاه الصحيح للخروج. مع ذلك، لم أحاول مرّة أخرى، إذ خشيتُ من أن أفوّت الرحلة. وجدتُ معدتي تُؤلمني من الجوع مجدّداً، فابتعتُ كعكة صغيرة، وصعدتُ إلى الباص.

عدتُ إلى المقعد، وتناولتُ القلم، لأعاود اللعبة. بدأتُ أتوتّر وأفكّر بالانسحاب، إذ تبيّن لي أنّني لم أقطع بعد أيّ جزء يُذكَر من المتاهة. وضعتُ القلم، حيث انتهيتُ، وعاودتُ المسير. بعد أن دخلتُ إلى أحد الممرّات سمعتُ صوت احتكاكٍ خفيف صادر عن أحد الجدران، فتراجعتُ إلى الخلف على الفور، انطلقتْ مجموعة من الرماح من أحد جانبي الجدار، لتدخلَ في الآخر. بدأتُ أشعر أنّني بالغتُ لدى تصميم

المتاهة عندما فخّختُها بالرماح، وكذلك بأرضيات زائفة في أماكن أخرى، تُوقع اللاعب في بحيراتٍ من الموادّ الكاوية. في هذه الحالة، لن ينفع استخدام قاعدة اليد على الجدار، لأنّها قد تقود اللاعب عبر ممرّات غير آمنة. استدرتُ عدّة مرّات، لأعود في النهاية، وأجد نفسي عند حجرة المرآة الخاوية نفسها.

وصلنا إلى المحطّة التالية، كنتُ مرتابةً في كل شيء. هذا الشابّ هل يُقبّل حبيبته الأفعى وداعاً في كل محطّة؟ رميتُ الحقيبة أرضاً، واتّجهتُ إليهما. أبعدتُ الفتاة الأفعى عنه، لأتمكّن من النظر إلى وجهها. تملّصتْ منّي بعد أن صُدمتُ لرؤية ملامح وجهها الموزّعة على نحوٍ مبعثر، لم يكن هناك تناظر في هذه الملامح. إذا دخلتُ الآن حجرة الهاتف هذه، وهاتفتُ رَقْم هاتفي الجوّال، هل سيتغيّر رمز المدينة؟ ما الذي يضمن أن أكون قد تحرّكتُ بالأصل من هنا؟ عادتْ معدتي لمضايقتي الآن، لم يكن هذا الجوع المستمرّ سوى سبب آخر لأقلق بشأنه. يصعد الركّاب مجدّداً إلى الباص، وإذا سلّمتُ نفسي الآن، سأعود إلى هذه النقطة مجدّداً، جائعة وقلقة بعد ساعات. هناك دليل واحد على أنّني محقّة في قلقي، وعليّ أن أتجرّأ قليلاً، لأنظر إليه، رفعتُ يدي من جيب المعطف، وكان الظفر المكسور في مكانه الآن. إذا كان على هذه المنظومة المخرّبة التي تحتجزني في هذا البُعد أن تُحطّمني، فليحدث ذلك بأسوأ طريقة والآن. انبطحتُ على الأرض، أراقب صعود آخر الراكبين إلى الباص، خرج السائق يناديني بيده في البداية، ثمّ نزل إليّ، ليحاول سحبي من ذراعي. لم أتردّد في عضّ معصم يده بكلّ ما استطعتُ من قوّة. استفزّني اهتمام بقية الركّاب، الذين نزلوا، ليحاولوا سحبي مجدّداً إلى ذلك المكان أكثر، فصرختُ في الجميع مطالبة إيّاهم بمتابعة رحلتهم. بدا عليهم الارتباك للحظات، واستطعتُ تمييز جملة: "إنّها خطر على نفسها" من إحدى

السيّدات التي كانت تنصح بالاتّصال بالشرطة. أغمضتُ عينيّ بعناد حتّى سمعتُ صوت المحرّك يصعد، ثمّ يتلاشى بالتدريج. سعدتُ وأنا أرى الباص يبتعد عن المحطّة. أدركُ أنّني لم أنجُ بالضرورة، تمكّنتُ من التشويش على المنظومة الخربة فقط عوضاً عن أن أعلق في داخلها إلى الأبد. لا أعرف بعد إن كان ذلك سيعني نجاتي أو دماري بتأثير قوّة طاردة مركزية لها. أنا الآن في حالة شديدة من الإعياء، والنعاس يتسلّل إليّ، وأنا أسترجع في ذاكرتي أحاديث، أجريتُها مع آخرين مختلطة مع أخرى، لم تُجرَ يوماً: إذا سقطتْ شجرة في جزيرة، لا يقطنها كائن حيّ، فهل سيكون لارتطامها صوت؟ دوى في أذنيّ صوت قديم، هو صوت والدي يصيح بي أنْ لا أقترب من الشمس. كانت هذه الذكرى قادمةً من خلف طبقاتٍ كثيفة، شفّت الآن بنعومة، لأرى نفسي مع المهيب ديدالوس، كنتُ أحلّق خلفه يومها باستخدام الأجنحة الاصطناعية التي صمّمها، لنهرب من المتاهة التي سجنه فيها مينوس حثالة الملوك بعد أن بناها له، وصمّمها بنفسه. كانت الشمس قريبة جداً، وكان والدي يصرخ من بعيد، بينما كان الصمغ يسيل بفعل الحرارة عن الجناحين الملصقين بظهري. انبعثت رائحة برتقال خفيفة من مكانٍ ما، وأظنّه في رأسي. قبل أن أُغمض عينيّ تماماً، كانت الأصوات قد اختلطت أكثر في الخارج.

في سجن مصر

ثبّتني على الجدار، وأمسكَ وجهي بيده الخشنة متمعّناً فيه. كنتُ أسمع عمّا يحدث في السجن للفتيان من عمري، ولكنّني لم أكن أظنّ ذلك حقيقياً، أو، على الأقلّ، لم أتوقّع أن يحدث ذلك في لحظة وصولي، وبعد مغادرة حارس السجن على الفور. قال لزميله بإعجاب: انظر إلى هذا. شاهدتُ نفسي الآن كما يراني الناس من الخارج: وجه أمّي الجميل الذي أحمله. مرّر الرجل يده على خدّي، ونادى زميله مجدّداً، ليراني عن قرب. استجاب الرجل الآخر، وقفز عن سريره في الطابق العلوي. حمل صحناً زجاجياً، عليه شمعة مشتعلة، وقرّبها من وجهي. لفحاني لبضع ثوان بأنفاسهما، ثمّ تركاني وشأني، وابتعدا إلى زاوية بعيدة عنّي في المهجع، ليتناقشا. نظرتُ إلى الباب الحديدي، ولم يكن هناك أحدٌ في الردهة، لن يتمكّن أحدٌ من انتشالي من هنا مهما حدث. فكّرتُ بأمّي ووجهها الذي أحمله، لا أعرف إن كانت تدري بما جرى لي، وأين أنا. إن كانت تجلس قلقة في المنزل تنتظر عودتي، أم أنّها وضعتْ معطفها الأسود الثقيل عليها، وخرجتْ تبحث عنّي في الطرقات والعيون تلاحقها في كل مكان. أوّل ما سيتبادر إلى ذهنها بالطبع هو ما يحدث في الحقيقة تماماً: أنّني على وشك التعرّض للأذى.

بدا أنّ الرجلين قد انتهيا من حديثهما، وعادا إليّ، ليُمسكاني مجدّداً، ويُجلساني على أحد الأسِرّة. جلسا على السرير المقابل، وبدأ أحدهما يتحدّث إليّ:

- ما الذي جلبكَ إلى هنا؟

- تقرير كاذب.

- مَن قدّمه؟

- لا أعرف، ولكن، أظنّه والد فتاة، كنتُ أتحدّث إليها في الحيّ أحياناً.

- هل اتّهمتكَ الفتاة بأنّكَ كنتَ تلاحقها؟

- لا أعرف. ربمّا حاولتْ ألا تُغضب والدها.

أوقف الرجل حديثه، لينظر إلى زميله، ثمّ عاود الحديث:

- كنّا ننتظر أن تأتي إلى هنا.

تدخّل صديقه في الحديث:

- لم تكن القصّة لتكتمل دون ذلك.

- نحن لا نتحرّش بالسجناء الجدد.

- أثار اهتمامنا شيء آخر في كونكَ أجمل مَن دخل إلينا.

- وأصغرهم.

- حلم كلّ منّا حلماً.

- انظر، أنا أعمل ساقياً في حانة، وهو يعمل خبّازاً.

- اجتمعنا هنا مثل القصّة القديمة.

- ننتظر ما سيتقرّر بشأننا، وفي هذا الوقت، نرى أحلاماً في الليل أيضاً.

- ليست الأحلام نفسها، كما في القصّة.

- عندما طالت مدّة إقامتنا هنا دون أيّ إشارة، عرفنا أنّ الأمر لن ينتهي إلا بقدومكَ.

تربّع ثلاثتنا على الأرض. قلتُ لهما إنني لا أفهم في تفسير الأحلام. قالا إنّهما متأكّدان أنّني الشابّ المقصود. لم يَبدُ الخبّاز متشائماً رغم أنّه يجب أن يكون أكثرنا خوفاً.

"لقد حلمتُ غير حلمه في القصّة"، هكذا كان تبريره.

الساقي كان مطمئناً بدوره، إذ إنّ الساقي في القصّة لا يموت.

تبيّن أنّ حلم الخبّاز كان رؤيته لنفسه في ساحة قريته يوم عرسه يُزوّجونه من امرأة، لم يرَ وجهها من قبل. قال إنّه استحسنها في العرس، ولكنّه كان يتساءل عن مصير زوجته الحالية، وعن رأيها في ما يحدث. عندما جلس على منصّة العرس، سكبت له جدّته المتوفّاة طبقاً من حساء الدجاج البارد، كانت الدجاجات كاملة بمناقيرها وأرجلها. أما الساقي، فرأى نفسه في حديقة خلفية لأحد المنازل، ليجد أشجاراً تُثمر مواليد جدداً، يبكون دون انقطاع.

قلتُ إنّني بحاجةٍ لأفكّر في معنى هذين الحلمين قليلاً، إذا كانا مُصرّين، وإنّني بحاجةٍ لأكون وحدي. رميتُ بنفسي على السرير باطمئنان، إذ إنّهما لن يحاولا إيذائي أو الاعتداء عليّ وأنا حامل مفاتيح الرؤية.

أغمضتُ عينيّ، وقد حان الوقت لأفكّر بحقيقة ما يحدث. ليس لديّ أيّ فكرة عن التهمة الموجّهة إليّ، ولذلك أفضل ما يمكن فعله هو التظاهر بالخبل. عندما فكّرتُ بأمّي، بكيتُ قليلاً، وأنا أشعر بالإحراج جرّاء ذلك.

شعرتُ بأنفاسٍ فوق رأسي، فالتفتُّ إلى جانب السرير بسرعة. مسحتُ وجهي بكمّي. وجدتُ الخبّاز والساقي واقفين أمام سريري.

- انظر، لقد كان يبكي.

جهدتُ لأعدّل صوتي: "لديّ حساسية من هذه البطّانيات فقط".

- إنّنا نحمل لك أخباراً سيّئة، ربمّا عرفتَ قبلنا، أو رأيتَ أنت أيضاً ما رأينا.

- القصّة تغيّرت.

- رأيناكَ الآن في الحلم.

- ربّاه، إنّك صغيرٌ جداً.

- كنتَ في الحلم أصغرَ بعد.

_ كيف ستُطاوعهم قلوبهم على أن يفعلوا بكَ هذا؟

أمسكني الساقي مطمئناً، قال: "اسمع... لقد قرّرنا شيئاً، ربمّا ينجح".

فهمتُ أنّهما بحثا في الوضع معاً، وقرّرا أن يفتديني الخبّاز بعد أن نُعيد القصّة إلى مسارها الصحيح.

- سيقوم الخبّاز الآن بالاستلقاء على فراشه، وتخيُّل نفسهِ مصلوباً في ساحة، وعلى رأسه أقراص خبزٍ، تنقرها طيور السماء. سيُعلّق هذه الصورة أمام عينيه مراراً حتّى يغفو، وكذلكَ سأفعل مسترجعاً صورة عناقيد العنب والكأس. أنت ستحرسُ غفوتنا هذه من أيّ صوت حتّى ننجح.

تركاني وحدي، واستلقى كلٌّ منهما في سريره. تركتُ سريري وجلتُ في الغرفة قلقاً. خطواتٌ دقّت الأرض باتّجاهنا، ثمّ كان صوت دخول المفتاح في الباب كافياً لإيقاظهما.

لم أصرخ أبداً، كنتُ أريد أن أسمع أيّ شيء ممّا يقولانه، وأنا أُسحَل في الممرّ. الخبّاز كان يصرخ من الزنزانة أنّه يجب أن يُؤخَذ هو، كما في

القصّة، والساقي كان يحاول إقناع السجّان بأن يختاره هو أو الخبّاز عوضاً عنّي. كنتُ أحاول أن أُبعد أفكاري فقط عن أمّي، لأنّي لا أعرف إن بكيتُ الآن، هل سأُضرَب أكثر، أو أُعامَل بشكلٍ أفضل. في حلقي لسعة كأنّني سأمرض قريباً، كانت أمّي لتجنّ، لو عرفت ذلك. تبيّن بعد كل شيء أنّني لستُ نبياً، كما ظننتُ قبل قليل. لستُ نبياً، لكنّ أمّي ملكة، وأعرف أنّ سبع سنواتٍ عجاف ستأتي على هذه الأرض.

الساعة السابعة من يوم أمس

لو عرفتُ الطريق إليها مجدّداً، لكان كل شيء أفضل الآن. ذهبتُ إليها يوماً، ولكنّني أضعتُ طريقها طيلة ما تبقّى من حياتي.

أذكر أنّ الطريق لم يكن سهلاً. كان عليّ أن أستقلّ القطار حتّى محطّة أخيرة، ومن بعدها تابعتُ جَرّ حقائبي مَشياً على الأقدام، وقد ضَلَلتُ الطريق إلى حيث كنتُ أنوي أن أذهب أصلاً بغرض زيارة عائلية. ظَلَلتُ أمشي تائهاً لنصف ساعة في أرضٍ بلا ملامح حتّى عثرتُ على نقطةٍ، توجد بها مجموعة سيّارات أجرة. كان أحد سائقي السيّارات المصطفّة بشكل نصف دائري في فسحةٍ صخرية غافياً في مقعده، ولم يكن هناك أثر لبقية سائقي السيّارات الأخرى. في المقعد الخلفي، كان هناك شابّ يقرأ كتاباً، قال لي: لا توقظه، لن ينطلق قبل أن تمتلئ السيّارة.

انطلقت السيّارة بعد دقائق، إذ تبيّن أنّ سعر الحجز بخس، فحجزتُ مقعدين آخرين، ليُسرع السائق بالمغادرة.

لم أكن بمزاجٍ جيّد لبدء محادثة مع السائق وسؤاله عن أفضل فندق للمبيت في البلدة التي وصلنا إليها، لذلك طلبتُ أن أنزل في الساحة العامّة. قبل أن أصل، وعندما كان السائق يُوصِل الشابّ إلى وجهته، وجدتُ ما يشبه فندقاً في ذلك المكان. اليافطة كانت أحرفاً مضاءة بلون نيون أزرق على البوّابة: "نزل ريكاردو"، فقرّرتُ استطلاع المكان.

لحسن الحظّ، ولأن الموسم الآن غير سياحي، فقد تمكّنتُ من حجز غرفةٍ بسرعة. سلّمتْني موظّفة حمراء الشعر، تضع كحلاً أسود ثقيلاً على عينيها، بتكاسل، مفتاحاً. وقالت لي بلكنة محلّيّة غريبة إنّني لو قدمتُ بعد قليل، فلم أكن لأجدها، أو أجد أحداً. لم تكن الغرفة سيّئة، كانت فسيحة وقديمة الطراز. وكانت هذه هي المرّة الأولى التي أحظى فيها بسرير ذي ستائر. لم يكن هناك أيّ أثرٍ لتلفاز. حاولتُ أن ألتقط على جهاز الهاتف المحمول أية شبكة، ولم أُفلح في ذلك. في الواقع، كانت الإشارة مفقودة بالكامل من الجهاز. اتّصلتُ من الهاتف الأرضي في الغرفة برَقْم الاستقبال. رنّ الهاتف كثيراً في الطرف الآخر، ولم يردّ أحد.

عندما نزلتُ، كان مكتب الاستقبال فارغاً، عثرتُ فقط على سيّدة تدخّن على البار الخشبي الصغير. حاولتُ أن آتي بموضوعٍ ما للحديث، فقد كان المكان كلّه موحشاً الآن. هزّتْ رأسها. قالت لي إنّ عليّ أن أصنع مشروباتي هنا بنفسي في البار أيضاً، فلا وجود لأيّ موظّفين في الفندق. لم يَبدُ هذا الأمر مطمئناً. نظرتُ إلى الخارج عبر زجاج الواجهة، حيث كان الظلام قد بدأ يحلّ. ماذا إن حدثت مشكلةٌ ما؟ تبدو السيّدة طريفة، ولكن، ربّما لم يُعجبها مظهري، ويظهر أنّها غير راغبة بالتحدّث إليّ. تفحّصتُ شاشة الهاتف، لأعرف كم الساعة الآن. وجدتُ أنّ الساعة غير ظاهرة، ولم أُفلح في ضبطها من إعدادات الجهاز. سألتُها عن الساعة، فاستدارت إليّ للمرّة الأولى منذ بداية الحديث، وتفحّصتْني ملياً، كأنّما لتعرف بأية صيغة طرحتُ هذا السؤال. تساءلتْ عمّا إذا كنتُ أعرف من قبل ما هو الأمر المميّز في هذه البلدة. لم أعرف شيئاً كهذا في الحقيقة. قالت إنّها لم ترَ هنا طبيعةً مدهشة، أو أماكن أثرية ممتعة، ولكنّها مع ذلك تفضّل أن تأتي إلى هنا كلّما استطاعت. "إنّها راحة كبيرة ألا يشعر المرء بعبء الوقت"، قالت. فتذكّرتُ أنّني سمعتُ شيئاً مشابهاً عن المكان

من السائق، وأنا قادم في سيّارة الأجرة، ولكنّني ظننتُه وصفاً مجازياً مثل قول: ""شاطئ يحملك إلى الفردوس من دون تذكرة"، أو "استراحة جبلية تُبعدك عن هموم الحياة اليومية". أخبرتْني السيّدة بجدّيّة بالغة أنّ الأمر ليس مجازياً، لذلك عليّ أن أكفّ عن التساؤل عن الساعة.

في الخارج، لم يكن الأمر يختلف عن أيّ بلدة صغيرة أخرى، هناك حركة بسيطة في الطريق تشعر أنّها على وشك أن تختفي عندما يتأخّر الوقت أكثر. كما علمتُ فيما بعد، فهذا الأمر ليس متعلّقاً بالنوم مبكّراً، أو بالخوف من اعتداءات محتملة في الشوارع، ولكنّ الأهالي هنا يفضّلون قضاء الفترة الليلية في المنازل وحسب. هل هم معتادون على أيّ نوعٍ من المخدّرات؟ ذلك هو ما أجابني عنه الشابّ نفسه الذي صادفتُه في سيّارة الأجرة التي أقلّتْني إلى هنا: "لا بدّ أنّك تَعدّ نفسك أمام بلدةٍ جامحة غريبة الأطوار، ولكن، في الحقيقة لا أحد هنا يكترث بتخدير نفسه حقاً إلا بعض مَن التجؤوا إلى هنا منذ وقتٍ حديث". أشار بيده نحو امرأة شقراء في الخَمسينيات من عمرها، ترتدي زيّاً أبيضاً ضيّقاً مصنوعاً من الجلد، وهي مستندة إلى سورٍ من الأسلاك، يطلّ على حديقة المبنى الذي خلفها. كانت علامات الانتشاء ظاهرة عليها، وهي تتحدّث إلى مجموعة من الشبّان والشابّات ذوي الشعور الملوّنة والمعاطف الجلدية، ثمّ توقّفتْ عن الحديث، وقرّرت الاضطجاع قليلاً على مرتبة حجرية في مدخل البناء.

"بعد قليلٍ من الوقت، ستكون حتّى غير راغبةٍ بمزيد من الكوكايين"، علّق الشابّ وهو يسير بجانبي في الزقاق: "رأيتُ ذلك كثيراً من قبل، يأتون هنا هرباً من إنهاك مصارعة الوقت .. يتمسّكون بعاداتٍ قديمة كهذه لبعض الوقت، ثمّ ينسونها أيضاً".

فهمتُ أنّ هذه المرأة كانت قبل عقود ممثّلة سينمائية شهيرة، كانت

رمزاً من رموز الحُسن في بلدها، كانت صورها معلّقة في كل مكان. بعد أن بدأ جمالها يذوي، أُصيبت بالإحباط أمام تلك السيناريوهات الجديدة كلها التي تُرسَل إليها لأوّل مرّة، لتقوم بدور سيّدات أكبر سناً. صبّتْ جام غضبها على المخرجين الجدد المفتقدين لأيّ حسّ جماليّ كما رأتْ، وأصبحت هذه المقابلات الصحفية الغاضبة معها في الواقع تسليةً مفضّلة لدى الناس. كان من الممكن أن تجنّ، لولا أن اهتدتْ إلى هذا المكان.

"ليست وحدها مَن وجد مكانه هُنا، الأشخاص الذين كانوا في ضيقٍ دائم بسبب عجلتهم هم أكثر ممّا كنّا نظنّ". قادني إلى تقاطع طُرُقٍ، يفضي إلى زقاقٍ طويل آخر. في الواقع، كان من الجيّد أنّني التقيتُه مرّة أخرى بعد جولة السيّارة. لا أعرف كيف تجرّأتُ ولوّحتُ له بيدي شبه مستنجد عندما لمحتُه مرّة أخرى هذا المساء عبر الواجهة الزجاجية لمكتبةٍ مضاءة، كنتُ أنظر إليها معجباً بتصميمها الأليف. هرع إليّ، وسألني إذا كنتُ أحتاج إلى أيّ مساعدة هنا، وأخبرتُه أنّ البلدة تبدو محبطة بعض الشيء، وأوّد أن أحصل على نصائح لزيارة أماكن جيّدة هنا. كان لبقاً بما فيه الكفاية، ليسير معي، ويتبرّع لمرافقتي. وافقتُ على الفور، وخصوصاً أنّه لم يَبدُ منشغلاً بشيء.

كان السير في الزقاق الطويل، الذي نعبره الآن، يشبه السير في طريق مُظلّل بأشجار طويلة، تنحني، لتتقارب قممها من الجهتين. كانت فسحة السماء من فوقنا تبدو أصغر، لتقارب الأبنية المتقابلة من الجهتين. كانت النوافذ تحمل أنواراً وردية اللون في أسفلها. أطلّتْ امرأة بشعر أشقر طويل من نافذة، وراقبتْنا للحظات، وهي تقضم من شي ما بيدها دون اكتراث، ثمّ عادتْ للداخل. في نافذة منزل قريبة من الشارع، استطعتُ أنّ أرى مائدة مضاءة بالشموع فقط، بينما أُطفئتْ أنوار المنزل كله، ورجلاً مسناً

يستمتع بتناول عشائه مرتدياً فانيلا داخلية بيضاء. "لقد أُصيب بعدّة جلطات قلبية من قبل"، قال الشابّ، "لذلك يتشاجر على الدوام مع مَن يقطنون البناء المقابل طالباً منهم إطفاء أنوار غرفهم خلال الليل، لأنّها تُزعجه". كان من الغريب أن يختار هذا الرجل بوضعه الصّحّيّ أن يقطن في حيّ البغاء في البلدة. أجابني الشابّ تواً عمّا كنتُ أفكّر فيه: "يبدو لنا أنّه يجد شيئاً من البهجة هنا، ليست البهجة التي يبحث عنها رجل وحيد مثله لدى العاملات في الحي، لكن مزاج الزقاق يُشعره ببعض الأنس، كما يبدو". لم يكن الرجل من سكّان البلدة الأصليين، بل من ضمن مَن لجؤوا إليها أيضاً، ليهرب من إرهاق العراك مع الزمن. "البعض يظنّ أنّه مخبول، كان يوماً ما طبيباً ناجحاً، ولكنّه مُنع من ممارسة مهنته بسبب التجارب الجنونية التي يقوم بها. ولكنّه يعمل بجدٍّ حقاً على مشروعه الذي بدأ منذ وقتٍ طويل: صناعة مثانة معدنية مزوّدة بجهاز تنقية، يظنّ أنّها قادرة على أن تحلّ محلّ الطبيعية، كحلّ نهائي للمشاكل البولية المزعجة كلّها، والتي عانى هو نفسه طويلاً منها. المشكلة أنّه يتقدّم ببطء شديد في هذا المشروع، لذلك كان لا بدّ له من العمل عليه وهو متحرّر من حساب الساعات التي تفصله عن النهاية. لم يكن يريد أن يموت قبل أن يقدّم هذه الخدمة للبشرية".

أمّا السبب الذي يجعل ذلك كلّه ممكناً، وفق ما يرويه عجائز البلدة، فقد كان أمامنا الآن مباشرة كما أخبرني. لم أر سوى مبنى عاديّ المظهر، ومرتفعاً بعض الشيء عن بقية الأبنية. تزعمُ الأسطورة أنّ البلدة كلّها واقعة في قلب ثغرةٍ واحدة في الحقل المغناطيسي للأرض، ومركز هذه الثغرة يقع أسفل هذا البناء بالتحديد. سبّب ذلك خَلَلاً في البُعد الزمني. على السطح هناك حجرة، يتمثّل فيها هذا الخَلَل بشكلٍ ظاهر، إذ إنّ دخول بوّابتها سيودي بالمرء إلى الخروج من بوّابةٍ أخرى، تنقله إلى السطح نفسه

مجدّداً، ولكن الوقت سيكون مختلفاً، إذ سيكون المرء في هذه الحالة في المكان نفسه، ولكن، في الساعة السابعة مساءً من اليوم السابق. "لا داعي لأن يقلق أيّ أحدٌ إذاً من احتمال تأخّره على أيّ موعد، أو تفكيره في مشروع يجب تسليمه، إذ بإمكانكَ دائماً أن تصل إلى هذا المبنى، وتصعد حتّى الطابق الأخير، لتكسبَ يوماً إضافياً، وتعود إلى البارحة"، قال. ولكنّني في الحقيقة وجدتُ الأمر مروّعاً بعض الشيء: "ولكن، في هذه الحالة، وإذا استسلمتُ لنفسي، فإنّني سأكرّر الصعود واستخدام هذه البوّابة. وهو ما سيجعلني عالقاً إلى الأبد في اليوم السابق". أكّد لي الشابّ أنّ هذا لم يحصل منذ فترة طويلة. استخدام الناس بإفراط لهذه الفجوة الزمنية أدّى إلى عدم اكتراث أحد بعبء الوقت مع مرور الزمن. لذلك لم يعد هناك مَن يحدّد مواعيد ثابتة لفعل أيّ شيء، أو يشعر بالضغط لإنجاز عمله في وقتٍ محدّد، ومن ثمّ لم يعد أحد حتّى يكترث باقتناء ساعة.

شكرتُ الشابّ على مساعدته لي في الجولة، وودّعتُه متذرّعاً بالتعب، وبضرورة العودة إلى الفندق، ولكنّني لم أعد إلا إلى مكانٍ واحد، مبنى الساعة السابعة من يوم أمس ذاك. وجدتُ نفسي أصعد درجات السّلّم بسرعة، وأنا أشعر بالإعياء، كلّما ارتفعتُ أكثر، كنتُ أشعر بثقلٍ واضح في الحركة، وكانت معدتي تنقبض قليلاً. ازداد الدوار حدّة مع قرب وصولي إلى سطح البناء، وكنتُ على ثقة كاملة بأنّني أنفصل عن مركز استقطاب غير مرئي. عبرتُ الحجرة ركضاً وأنا أرى البوّابة الحديدية البيضاء، المفتوحة على السطح نفسه من يوم البارحة. عندما خرجتُ إلى الطرف الآخر، كان الإعياء كله قد ذهب، ولكنّ الشمس كانت قريبة جداً الآن من حيث أقف، متوهّجةً بلونٍ أحمر داكن.

مَن سيلعب دور صلاح الدين؟

على كل شيء أن يتوقّف حتّى نعثر على الشخص الصحيح. الأمر ليس مزحة، عندما اقتادنا العقرب الابن في ذلك اليوم إلى المكتب القديم، ذلك المكتب المغلق المرعب، لم نكن نتوقّع أن يكون المطلوب هو أن نرى التمثال النصفي، التمثال الذي عرفناه على الفور. قال لنا إنّ والده العسكري صاحب لقب العقرب، والذي رحل بأوسمته منذ عقود، كان معجباً بصلاح الدين للغاية. ولم يكن بحاجة ليقول أكثر.

العثور على سيناريو مناسب لم يكن مسألة صعبة، كان أسهل جزء من العملية. ولكن، كيف يمكن العثور على الشخص المناسب، الشخصية الهائلة، وافرة الحضور والقوّة، لنسند إليها دور صلاح الدين؟ اتّفقتُ مع المنتج على الحضور إلى الشركة في الصباح التالي، لأطّلع على ما لديه من خيارات. خطوتُ على بلاط رقعة الشطرنج في طريقي إلى مكتبه، بدا التباين برّاقاً بين اللونين، بدا ضاجّاً بالحيوية أكثر من الحياة البطيئة التي تجري فوقه في الشركة، الموظّفون الضجرون والأزيز الرتيب للمراوح الكهربائية. الصخب الذي بثّته فيّ المربّعاتُ كان متناغماً مع إيقاعٍ يضجّ في رأسي، لعبةُ ريتشارد مع صلاح الدين: "الأبيض يتقدّم ويميت في النقلة القادمة".

تأبّط المنتج ذراعي مرافقاً إيّاي إلى مكتبه. لم أوافق على أيّ اقتراح من دفتر الصور الذي عرضه عليّ لممثّلين مرشّحين للدور، شبّان مراهقون سمجون، أو كهول تلمع مساحيق الزينة على وجوههم في الصور. عندما

رفضتُ المرشّحين كلهم، أغلق الدفتر، وسألني بكلّ جدّيّة إن كنتُ أعي تماماً ما نحن فيه الآن، إنّ الأمر مرتبط بذلك التمثال في حجرة القائد المتوفىّ وأنّ المهمّة شبه وطنية الآن: أن نُنتج عملاً سينمائياً عملاقاً عن صلاح الدين. ولكن هذا سخيف للغاية! لأنّني أعي تماماً كم هو الأمر جدّيّ، لا أريد المخاطرة بإسناد هذا الدور إلى أحد أولئك الشبّان وضيعي النشأة الذين يتسكّعون في المقاهي الرخيصة، أو أولئك المتحفيين كبار السّنّ بخواتمهم الفضّيّة وصبغات شعورهم الرديئة. لا يمكن أن يكون أولئك صلاح الدين. قال لي أن أغادر المكتب الآن، وأستحمّ تحت الماء البارد، وأشرب فنجان قهوة، لأراه في المساء، لأنّه يرى بوضوح أنّني تحت تأثير المخدّر.

ما أزال أرى عدم الجدوى من ذلك، أعني الفكرة كلّها وأولئك المرشّحين الذين يتمسّحون بأيّ فرصة للشهرة بذلّ، وأراهم يصطفّون يومياً كطابور من العسكر في المقهى الذي يرتاده المخرجون عادة، ليبتدعوا وسيلة للحوار، أو لمجرّد إلقاء التحية والتذكير بوجودهم. لا، يمكنك أن ترى بوضوح أن أولئك ليسوا صلاح الدين. الأكثر إزعاجاً هو أن يتدخّل في عملية الاختيار تاجر قديم في سوق الأقمشة، أصبح منتجاً للفنّ محتفظاً بأفكاره المبتذلة، كالظنّ أنّ أفضل إنفاق للنقود هو شراء أغلفة ذهبية عديمة الذوق لهاتفه المحمول وإغواء بعض العاملات الفقيرات في الشركة، والظنّ مثلاً أنّ الدشّ البارد يُذهب أثر المخدرّ. بلاط الشطرنج ما يزال يضيء في رأسي، والإنارة تحرق عينيّ دون نظّارة شمسية، حتّى في الليل داخل الملهى. جلستُ إلى الطاولة لأفكّر، ريتشارد وصلاح الدين يستحقّان أن يفكّر المرء أكثر، ولكن هذا ما لا أستطيع أن أفعله الآن، وذلك لأنّ الفقرة التي كنتُ بانتظارها كانت على وشك البدء.

اعتدتُ على ألا أنظر إليها دفعة واحدة. لم تكن تُنهك نفسها كثيراً

بارتداء خرق صغيرة كما تفعل الأخريات في بداية فقراتهنّ، كانت تعرف أنّها لا تحتاج الكثير من الجهد. خطتْ إلى قلب المنصّة ببرودٍ كالعادة، غير آبهة بضرورة التناغم مع الموسيقى. شعرتُ، كما دائماً، أنّني أودّ لو أتمكّن من استعطافها، أنّ أجعلها ترّق لمرّة وتنظر إليّ كما تنظر إلى رجل تحبّه، ولكنّ هذه خدمة لم يكن الملهى ليوفّرها لزبائنه.

كم مضى على تلك الأيّام؟ لا أعرف بالضبط، ولكنّني كنتُ سعيداً وأنا أجلس خلف الكاميرا، لأصوّر مشاهد الفيلم أخيراً. عندما أخبرني مساعد التصوير أنّ المنتج الأخرق قادم بسرعة إلينا، عرفتُ أنّه يريد أن يُفسد الأمر كلّه بذائقته الهابطة. قمتُ من الكرسي، وتجاهلتُ الأمر تماماً حين أصبح ورائي يلهث، وأظنّ أنّه كان موشكاً على البكاء، وهو يترجّاني ألا أعرّض حياتنا للخطر بهذه الطريقة. لم أكترث به، وطلبتُ إلى مساعد التصوير أن يبدأ تصوير المشهد فوراً. تحرّكتْ ٣ كاميرات على محاور مختلفة، لتلتقط مشهد الحصان الذي يحمل صلاح الدين. توقّف الحصان وعلى ظهره الفارس بدروعه اللامعة، ومن ثمّ جثا الحصان على الأرض. ترجّل الفارس وهو ينتشل خوذته، لينكشف وجهها، وتُضيء الشمس شعرها الأسود كله. لم أشعر أنّني اتّخذتُ قراراً صائباً كما الآن قبل اليوم، استمرّتْ بالسير على الرمال الدافئة في درعها الحديدي وحُسنها الباهر، النافذ في النَّفْس كطعنة. لم أتمالك نفسي، وهتفتُ لها مُحيياً، دافعاً المنتج البليد الذي كان يلتصق بي مترجّياً أن أعود عن قراري في منحها دور صلاح الدين. أقسم أنّ البلاء سيلحقنا جميعاً، وقد كان محقّاً.

كان من المستحيل معرفة ما الذي تسبّب في حدوث تلك المصيبة. رجّح البعض أنّ القصّة وصلت إلى مسامع العقرب الابن، فسارع للتصرّف، وبعض المتديّنين من طاقم التصوير كانوا يرون أنّ ذلك لم يكن سوى

عقوبةٍ إلهية على إشراك راقصة تعرٍّ في العمل، ومنحها دور الناصر صلاح الدين. قد يكون المنتج نفسه طرفاً في الموضوع، ولكنّني لا أهتمّ لذلك كله. وحدي جلستُ على الأرض، وبكيتُ دون خجل، شهقتُ بأعلى صوتي، وأنا أراقب سحب الدخان الضئيلة التي تبقّت في المكان بعد أن تمكّنوا من إطفاء النار. لم يتمكّنوا من فعل ذلك قبل أن تأتي النار على كامل الحجرة التي كانت ترقد فيها بدفء الحياة الذي يمشي بهدوء في جسدها الكامل، الأسطورة، قبل ساعاتٍ من الآن. قالوا إنّها احترقت في نومها، ولكنّني أراها الآن، أستطيع رؤيتها بوضوح مثبّتة على قطعة خشبية في وسط النيران. السِّحْر، لم يكن أحدٌ يوماً يريد تركه وشأنه، وأنا الذي أرشدتُهم إليها. لم تشفع لي حالتي المزرية عندما جُررتُ في ظهيرة ذلك اليوم نفسه إلى التحقيق. في القبو المغطّى بالسيراميك، حين جُرِّدتُ من ملابسي، وكان الدم يملأ وجهي وصدري، أفدتُ دون تردّد بأنّني كنتُ تحت تأثير السِّحْر الذي دفعني لاختيار تلك المرأة، لتلعب دور صلاح الدين. لم أكن أنوي أن أهزأ بتوجيهات الحقير القائد وأبيه الجيفة، لم أكن أنوي أن أهزأ بصلاح الدين. لم أكذب في ذلك، كلّه كان حقيقة.

دائرة سوداء على شاشة الفحص

الماء القذر يرتفع أكثر. يمكن لأيٍّ كان أن يسدّ فتحة التصريف القذرة في التواليت برمي أشياء صغيرة، يريد التخلّص منها فيها، ظانّاً أنها ستعبر الحفرة، لكنها لا تعبر. من الواجب أن تُحلَّ مسألة الانسداد هذه قبل أن ينتبه أحد، يا للإحراج.

لكن أحداً لن ينتبه، إلا إذا قام أحد السُّكارى من الصالون، ليُفرغ ما في جوفه، ولا يبدو أن ذلك سيحدث، إذ إن ضيوف المنزل يبدون سعداء جداً، يغنّون مع البيانو، والقطّ يتجول بينهم جائعاً، وطالباً المداعبة، لا أحد يفكّر أن يداعب القطّ، الكلّ يغنّي متابعاً العزف على البيانو، أو سيقان امرأة ما قبالته. ولكن، ما العمل؟ لا أستطيع الآن أن أغادر الحمّام، بينما يرتفع الماء القذر أكثر في التواليت. من الممكن أن تسوء الأمور أكثر لو قام أحد المخمورين في الخارج بإلقاء نظرة عبر الشرفة. سيتمكّن من معرفة كل شيء.

المصيبة الآن بحجم دائرة سوداء صغيرة، سبق وأن أشار إليها الطبيب على الشاشة في عيادته محدّداً طولها بثمانية ملم. لم يكن الطبيب الخبير ليُخطئ بين مَن يجب أن يُبارك لها وبين مَن ستسأل على الفور عن كيفية التخلّص من بذرة الطفل هذه. تأتي الثانية غالباً بوجه مصفرّ برفقة صديقة إلى العيادة. "ما العمل؟"، سألتُه. "ارجعي بعد أسبوع حتّى يتجاوز طولهُ السنتيمتر الواحد"، قال. لم يتحرّك لديّ شيء كما كنتُ أتوقّع أو أسمع،

لم يخفق قلبي بالطبع لهذه الصورة، ولم أرَ فيها إلا لطخة قميئة على شاشة الجهاز الموصولة إلى ماسحة ضوئية موضوعة على بطني بعد أن مرّغه بالمرهم الطّبّيّ البارد، وأصابني بالقشعريرة. هذه الدائرة ستبقى متشبّثة بي أسبوعاً بعد، أي أنّ هذا المسخ سيبقى مرتاحاً في الداخل حتّى يبلغ طوله السنتيمتر. أظنّ أنّه يتثاءب الآن كريهاً ودبقاً.

كأنّ ذلك كلّه لم يكن كافياً. عندما رأيتُ أنّ الوقت مناسب لإلقاء اختبار الحمل في المرحاض، بوجود أولئك الضيوف كلهم الذين تنشغل بهم أمّي، بدأ الماء القذر يرتفع بعد أن سُدّت فتحة التصريف. ظننتُ أنّ سَكْبَ كمّيّات هائلة من الماء الساخن باستخدام أحد الأوعية البلاستيكية الكبيرة المَرمية في الحمّام سيقوم بالغرض، ولكنّه لم ينفع سوى في زيادة ارتفاع منسوب الماء. رائحة الفودكا تدخل من ثقب الباب. الضيوف في الخارج ملّوا من الغناء، لكنّ عازف البيانو لم يملّ، وكذلك القطّ ما يزال يموءُ بتسوّل. تسكتُ الأصوات كلها لثوان، ثمّ يُقهقه الجميع، وتعلو أصوات بالموافقة على اقتراح أحدهم. لا أعرف ما هو هذا الاقتراح، وقد يكون واحداً من الألعاب الداعرة التي يلعبونها باستمرار في اجتماعاتهم هذه. لكنّ ما أعرفه أنّهم مَلهوون بالحفل، ولم ينظر أحدهم عبر الشرفة بعد. لم يعرفوا ما حدث.

هو ذاته التقطتُه من حفل يوم رأيتُه أوّل مرّة، التقطتُه من منزلِ أصدقاء يوم رأيتُه أوّل مرّة، لوّح لي في الطريق، فالتقطتُه يوم رأيتُه أوّل مرّة، هذا كله ممكن، ولا فرق أصلاً، لأنّني لا أذكر يوم رأيتُه أوّل مرّة فعلاً. أعرف أنّني ذهبتُ معه من فرط المَلَل إلى الغرفة التي كان يقيم بها، وأنّه ظلّ يتكلّم عن أمورٍ، لا أذكر منها شيئاً، ثمّ وافقتُ بسرعة على فكرة أن يضع بعض الموسيقى أملاً في أن يسكت قليلاً، إذ كانت نبرة صوته مستفزّة للغاية،

ويتصنّع الكلام من باب الطرافة بلهجةٍ قروية غير مُتقنة، إمّا لأنّ أحداً ما أخبره أنّه يبدو ظريفاً بذلك، أو لأنّه مُختلّ ببساطة فقط، لا أعرف.

في اليوم نفسه، عدتُ إلى البيت، وخرجتُ إلى الشرفة، لأتمكّن من التدخين دون أن تزعق أمّي في وجهي. رأيتُها مجدّداً حينذالك: تلك المرأة القاطنة في غرفة السطح قبالة شرفتنا. خرجتْ إلى فسحة السطح في الوقت نفسه الذي خرجتُ فيه أنا إلى الشرفة، أخرجتْ سيجارة مثلما فعلتُ تماماً، ودخّنَتْها في الوقت نفسه، استدرتُ، لأسترق نظرة أوضح إليها، فاستدارتْ إليّ أيضاً، وقفتْ هناك مثلي تماماً: تحدّق بي، إنما بفضول أقلّ، وثباتٍ أكثر. ارتبكتُ أخيراً، وقرّرتُ الانسحاب من منافسة التحديق هذه متّخذة زاوية أخرى من الشرفة، تاركة إيّاها تنشغل بنشر ملابسها على السطح. بعد ذلك، أذكر كيف وقفتُ ظانّة أن خزانتي قد تعرّضتْ للسطو: على حبل غسيل امرأة السطح تلك.. رأيتُ قطعاً من ثيابي ذاتها: الفستان الأبيض النهاري، بنطال القماش الزيتي، حتّى ملابسي الداخلية رأيتُ منها ما هو منشور هناك.. كلها هناك تتأرجح على السطح المجاور، إنمّا ملطّخة ببقعٍ كبيرة، تبدو كأنّها بقع شحم.

أذكر ذلك اليوم جيّداً، إذ كنتُ قد شعرتُ أنّه بداية لكارثة. لم تكن تلك المرأة تلزمني لأتطيّر وأشمّ الشؤم جيّداً. لم يفدني شيئاً كل ما فعلتُه بعد أن انتهينا، أنّني دفعتُه عنّي، ووبّختُه على ما فعل، كانت اللعنة قد دخلتْ إلى جوفي، وانتهى الأمر. لم أعرف ما حدث عندها. أذكر الآن أنّني عندما كنتُ أراقب امرأة السطح المقابل في تلك الفترة كانت قد تغيّرت بشكل مهول. عندما كانت تقوم بكنس السطح. في إحدى المرّات، عندما عدّلتْ وقفتها بعد أن كانت منهمكة في التنظيف، كانت تسند خاصرتها بيدها. بدتْ لي بطنها مدوّرة وكبيرة.

طافَ الماء القذر عن فتحة المرحاض، وبدأ ينسكبُ على الأرض. عازف البيانو في الخارج لم يملّ، والضيوف السُّكارى يلعبون لعبةً ما، فيها تبادل أدوار. أفزعني طَرْق مفاجئ على الباب، فرددتُ بطَرْقةٍ أخرى. لم أعرف مَن الطارق، ولم يسألني أحد شيئاً. هذا رائع للغاية وصحيح، لأنني أعلم، كما تعلمُ امرأة السطح المقابل تماماً، أنني جاهزة، وراغبة بالانهيار عند أول سؤال عمّا إذا كنتُ بخير. وسأعترف أنّني رميتُ كاشف الحمل ملفوفاً بمنديل في التواليت، والآن بدأ الماء القذر يُبلّل سجّادة الحمّام الوردية الصغيرة واصلاً مقدمة أصابع قَدَمَيّ.

* * *

في غرفة على سطح بناء، عاش يوماً ستّة أولاد صغار، لا يغادرون الغرفة، بأمرٍ من أمّهم المنهمكة دائماً في خياطة الملابس لزبوناتها اللجوجات. كانوا متسمّرين وهم يشاهدون التلفزيون الذي يعرض أغنية مُصوّرة تبدو بذيئة الكلمات. يرتدي أفراد الفرقة الموسيقية فيها أزياء عمّال حاملين مطارقهم، وهم يقومون بملاحقة نساء في الطريق. ينشغل الأطفال الستّة بالأغنية عن مشاهدة المشهد المنعكس على الباب والنوافذ الزجاجية العاكسة لغرفة السطح، المشهد الذي يراه الحي كلّه الآن: الشقّة المقابلة تغرق، مياهٌ قذرة تجرف كل شيء، وتملأ شرفة الشقّة، يسبح فيها عازف بيانو كهل وقطٌ هزيل لا يُطعمه أحد. أناسٌ كُثُرٌ فاجأهم سَيْل المياه بعد أن بدؤوا لتَوِّهم الانهماك في لعبةٍ عابثة. لم يكن هناك وقت، ليرتدي أحد ملابسه، أو يتعلّم السباحة. في الصباح التالي، لن يشاهد الأولاد الصغار كيف صار الزقاق، كيفَ كان الكلّ مَرمياً على الرصيف، أو في عرض الطريق مع البيانو المهشّم وبقايا كؤوس الفودكا وقطعة بلاستيكية صغيرة جداً ملفوفة بمنديل مهترئ. الأولاد الصغار مُعاقَبون بعد أن ضبطتْهم أمّهم

يشاهدون الأغنية القذرة على التلفزيون، وممنوعون من مغادرة أَسِرَّتِهِم. أغمضوا عيونهم، بينما كان الماء القذر يرتفع في شارع الحيّ، يقترب من غرفتهم. كانت أمّهم تنتظر الذي سيأتي، جالسة في فسحة السطح. قيل كانت تنتظر جارتها الطافية على وجه المياه، والتي سيحملها المدّ إليها، إذ ستتمكّن الآن من أن تُطمئنها ألا تجزع من موعد الطبيب القادم، أن انظري كم من السهل أن يحدث ذلك للصغار.

يوم عدتُ إلى الخراب

"أنا السائق الذي أرسلته الجريدة ليقلّكِ، لكنّني لن أتمكّن من مرافقتكِ، بحسب ما وعدتُهم. سيفعل زميلي ذلك عوضاً عنّي".

كان ذلك جيّداً، إذ بدا لي السائق الأوّل رجلاً فظّاً، بشاربيه الكثيفين وإشارته الدائمة بإصبعه في أثناء الحديث. على عكس الآخر، المبتسم الذي بدا دمثاً بنظّارته الطّبّيّة الودودة، والذي سارع إلى مَدّ يده، ومصافحتي بحرارة. جررتُ حقيبتي مصرّة على ألا يلمسها أحد. قلتُ إن السبب هو أنّ فيها ما يمكن أن يُكسَر. وضعتُها في صندوق السيّارة، وانطلقنا.

أنا الآن على ما يرام، ووصولي إلى هنا يعني أنّني لم أعد في خطر. ذلك ليس مدهشاً لي بالطبع، لقد سبق وأن رأيتُه بتفاصيله. كنتُ أنظر عبر النافذة، لأتأكّد فقط أنّ كل ما يجري الآن وفيٌّ للرؤيا، وقد كان. رغم الظلام في الخارج، كانت الخضرة الجارحة للأشجار واضحةً تماماً. كان السائق في هذه الأثناء يحدّق عبر مرآة السيّارة بقلائدي الثلاث ذات الأحجار الكبيرة الملوّنة. سعدتُ لذلك، وانتابتْني رغبة، لأتحدّث عنها قليلاً. حملتُ الأحجار واحدةً تلو الأخرى، وطفقتُ أشرح له عنها: هذا الأزرق حجر الكلام. هذا البنفسجي لون الرؤيا. الأخضر حجر القلب. كانت هناك أحجارٌ أخرى، لكنّها في عنق شقيقتي. الآن تحت ركام بناء. حصلتْ هي على أحجار الأرض، فيما أُعطيتُ أنا أحجار الهواء. لذلك ظلّتْ هي في المنزل طيلة الوقت تُنجب الولد في إثر الولد حتّى دُفنتْ تحت أنقاض منزلها، وأنا طرتُ إلى هنا، ونجوتُ.

لم يَبدُ السائق مهتماً بحديثي كثيراً، علّق فقط أنّني الآن يجب أن أشعر بالاطمئنان، لأنّ معدّلات الجريمة في هذه المدينة تُعدّ من الأخفض على مستوى العالم كلّه. صلّيتُ في سرّي شكراً للربّ على نجاتي، رغم أنّ أحجار القلائد كانت تخبو فوق صدري منذ أن أقلعت الطائرة مغادرةً أرض الخراب. رجوتُ ألا يكون ما أشكّ بحدوثه قد حصل فعلاً، وألصقتُ وجهي بشبّاك السيّارة، لأتأكّد. عَدَدْتُ الانعطافات التي مَرَرْنَا بها، وعند الانعطاف الخامس، قلتُ للسائق أن ينتبه، إذ سيخرج في وجهنا باص ركّاب أصفر لامع كبير. ريثما حاول استيعاب ما أقصده، كان صوت بوق الباص قد دفعه لينحرف إلى اليمين متفادياً الحادث. قلتُ لنفسي إنّني متوهّمة إذاً، ولم يتغيّر شيء. لم أفقد ما لديّ بعد.

كنّا قد وصلنا إلى الفندق الذي حجزوا لي فيه غرفة، سأمضي فيها فترة إقامتي هنا. كان يقع قبالة قلعة تاريخية صغيرة، يُروى أنّ أحد القضاة المتنفّذين في المنطقة كان قد هرّب إليها عشيقته فيما مضى من مَصَحّ نفسي، سُجنت فيه بمؤامرة من زوجها بعد اكتشافه لخيانتها له. للأسف، بعد سنوات، كان العشيق قد نسيها في هذه القلعة السّرّيّة، منصرفاً إلى حياته وإطلالته الرسمية التي لم يكن بالإمكان إيجاد مكانٍ لها فيها. ولم يعد لها من أثر في عيون الناس سوى إطلالتها الشاحبة من خلف النوافذ. انتهى الأمر بأن جُنَّت بالفعل، وتطلّب الأمر سَجْنها في برج القلعة إلى حين وفاتها. طاب لأهل المدينة وقتها أن يروا ذلك انتقاماً من الربّ لخاطر زوجها، الذّي تحقّقت رغباته الكيدية في النهاية.

كانت غرفة الفندق بيضاء بالكامل، الأثاث والجدران والأغطية. السرير بسيط جداً، يشبه الأسرّة التي توجد عادةً في المصحّات النفسية، ولكنّني لم أرد الاستسلام لهذه الأخيلة. أظنّ أنّها ذائقة عصرية في تصميم الغرف

لا أكثر. فتحتُ الباب قليلاً، لأتأكّد أنّ أحداً ليس في الردهة خارج الغرفة، ثمّ وضعتُ حقيبتي على السرير. أفزعني رنين الهاتف المفاجئ، ليتبيّن أنّه شخص من طرف الجريدة، يطمئنّ أنّني وصلتُ، ويسألني إذا ما كنتُ أريد شيئاً. أغلقتُ السمّاعة بعد أن شكرتُه، وأخبرتُه أنّني متعبة للغاية، وأريد أن أنام فقط، لئلا يفكّر بالاتّصال مرّة ثانية. عدتُ إلى الحقيبة، أخرجتُ منها آنية الماء وعبوة الحبر الصغيرة الزجاجيتين من بين أوراق الجرائد. كان الوقت قد حان لأعرف ما إذا كانت شكوكي في مكانها. بقلم وجدتُه قرب الهاتف، وغمستُ رأسه بالحبر، حاولتُ أنّ أخطّ شيئاً ما على سطح الماء في الآنية الزجاجية.

لم يكن من الواضح ما الساعة بالضبط، ولكنّ الشمس كانت قد توغّلت كثيراً في قلب الغرفة. استيقظتُ بانزعاج شديد، لأغلق الستائر. لم يكن ما جرى في الأمس حلماً سيّئاً كما تمنّيتُ، نظرتُ إلى آنية الماء الملوَّث بالحبر تماماً. جلستُ قليلاً على حافة السرير، وفكّرتُ فيما يجب فعله. لم أذكر متى قمتُ بارتداء هذا الثوب الأبيض الذي وجدتُه مَطوياً على السرير حين أتيتُ، ومتى قمتُ بتوضيب شعري في قبّعة بيضاء مطّاطية. الحبر لوّث الماء، ولم يكن هذا ما يجب أن يحدث. كانت هذه الآنية تعمل على أحسن وجه فيما مضى، كان يكفي أن أخطّ كلمة بالحبر على الماء، ليتشكّل الحبر ناقلاً الإشارات في قلب الماء. كان الماء شفّافاً للغاية، إذ كان يُظهر نقاط الحبر على شكل وردة أو طلقة أو فأر بحسب الكلمة التي تُكتَب. كان قادراً على تزويد المرء بفكرةٍ جيّدة عن الأحداث القادمة. الآن لا يحدث شيء. لم أحلم بشيء البارحة كما كان يحدث عندما أتمدّد ليلاً، وأرى ما سيأتي، في حين تتوّهج القلائد الثلاث على صدري معاً. كانت تبدو الآن كامدة تماماً.

كان خيار السفر خاطئاً، أو، كان صفقة واضحة: الأمان مقابل ما كان

لديّ. لو كنتُ قد بقيتُ، لكنتُ خسرتُ الاثنين على كلّ حال، إذ من السهل أن يفطن أحد في أيّ لحظة ليلوم الساحرة على نشوب الحرب. قريبي الذي يقطن هنا خشي من حدوثِ أمرٍ كهذا، لذلك رتّب لي إجراءات السفر سريعاً بذريعة الإدلاء بشهادتي في تقريرٍ عن الحرب لجريدة يعمل فيها أحد أصحابه. تبرّعت الجريدة بتدبير الحصول على تأشيرة، لأجد نفسي على أقرب موعد طائرة محلّقة إلى هنا. ما كنتُ أملكه بقي هناك مع الخراب. خلعتُ قلاداتي المطفأة عديمة الجدوى، وقرّرتُ أن أسلّمها للدولة مع أوراقي التي كنتُ أمتلكها في سبيل الحصول على وثيقة جديدة هنا. طلبتُ على الهاتف رَقْم موظّف الجريدة، لأخبره أنّني لا أستطيع الذهاب إليهم اليوم، وأفضّل الحصول على مساعدة لأقدّم أوراقي الثبوتية على الفور، ولكنّني صَمَتُّ عن الكلام، إذ كانت بقع الحبر قد بدأت تتجمّع في الماء بضعف واضح. قطعتُ المكالمة، واقتربتُ أكثر لأرى التشكيل الذي يُظهره الحبر. كان الأمر يبدو شاقاً، ولكنّ القلائد المَرمية مع الأوراق كانت قد عادت للتوهّج بضوء خافت. بدا أنّ الرسم يشبه برجاً ذا نافذة، نافذة تطلّ منها امرأة مجعّدة الشعر. مع طَرَقات خفيفة على الباب، اختفى التشكيل، وعادت الآنية، لتضمّ ماءً ملوّثاً بالحبر فقط. ازدادت الطَّرَقات حدّة، ثمّ فُتح الباب عنوةً، ليدخل ثلاثة رجال إليّ. قلتُ لهم إنّني يجب أن أعود إلى البلد على وجه السرعة. أخبروني بألا أُهمل طَرْق الباب مرّة أخرى، لئلا يظنّوا أنّ مكروهاً قد حدث لي. بدا الموقف بغاية الإحراج، كان اثنان منهم يتصرّفان بتأدّب بالغ، وهما يحملان حقائب جلدية، رغم أنّهما قد اقتحما غرفتي، وبدا أنّهما في موقع توجيه الأوامر لي، بينما اكتفى الثالث بالوقوف عند الباب، وهو يراقب ما يجري، أو بدا لي أنّه يراقبهما تحديداً. قال أحدهما إنّ موعد الدواء قد حان. لم أكن أتناول أيّ دواء، ولكن، كان من الواضح أنّه سيكون أمراً لا يد لي فيه. عندما أخرج أحدهما حقنةً من

الحقيبة، مددتُ يدي باستسلام فقط. قالي لي إنّني بتُّ أهدأ الآن، وهذا جيّد. كرّرتُ رغبتي في أن أعود إلى البلد، وسألتُه متى يمكنني ذلك؟ قال لي مبتسماً، وهو يدفع محتويات الحقنة داخل جلدي، إنّني أستطيع ذلك منذ الآن إذا أردتِ. شعرتُ بالراحة لجوابه بعد أن كنتُ متوتّرة منذ دقائق، وبدأتُ أسترخي بشدّة، وأفقد الإحساس بأطرافي. لكنّني استجمعتُ قواي قبل أن أغفو تماماً، وتحاملتُ على نفسي، لأتمكّن من المشي إلى الطاولة، وحمل إحدى قلاداتي، لأهديها إليه. كانت قلادة الكلام. تقبّلها منّي مبتسماً، ولكنّني رأيتُه يضعها على طاولة الغرفة قبل أن يغادر مع زميله، ويتبعهما الثالث بعد أن يلقي عليّ نظرة أخيرة، ويغلق الباب.

كنتُ خائفة أن يكون الرجل كاذباً في كلامه، ولكنّه لم يكن. قمتُ من السرير بخفّة بالغة، ومشيتُ قرب القلعة. أكملتُ المشي أكثر بقليل حتّى وصلتُ إلى الشاطئ. قبضتُ بقوّةٍ على قلائدي، ومن ثمّ عبرتُ البحر. لم أكن لأخشى شيئاً، إذ عندما سبكتُ القلائد للمرّة الأولى، نُقش عليها أنّ حامل حجر الكلام مأذونٌ له أن يعبر البحر دون أذية.

كان يجب أن أجد طريقي الآن. بعد أن وصلتُ اليابسة، وبعد الكثير من المشي بلا وجهة، ظناً أني سأعرف الطريق وحدي، قرّرتُ أن أستعين بمساعدة. وصلتُ إلى مرجٍ عشبيّ أخضر، ورأيتُ أولاداً يرتدون بذّات كاراتيه بيضاء، يقفون على المرج. سألتُهم عن الطريق إلى مدينتي، فنادى أحدهم شابّاً، كان يتسكّع في الجوار. أتى الشابّ، كان ثلاثينياً ذا عينين زرقاوين حادّتين، ويرتدي مثلهم. يبدو كأنّه مدرّبهم، أو أنّه متدرّب في مرحلة أعلى. سألتُه، فقال لي إنّني لن أتمكّن من المشي إلى هناك، وإنّه يستطيع أن يقلّني. اتّفقنا على موعدٍ للانطلاق.

في السيّارة، وجدتُ أنّ الشابّ يرتدي الآن زيّاً عسكريّاً، ممّا جعلني

غير مطمئنّة على الإطلاق. شعرتُ بالإحراج، وحاولتُ أن أتحدّث كثيراً، لأُبعد التوتّر عمّا أفكّر فيه حقيقة. قلتُ له إنّنا في الثانوية كنّا نرتدي زيّاً شبيهاً بزيّ العسكر. استدار بوجهه إليّ، ابتسم، وطوّق خصري بذراعه بمودّةٍ للحظات، ثمّ عاد للقيادة قبل أن ينحرف عن الطريق، وبعد أن كان قلقي قد زال بشأنه.

لم أكن قد حسبتُ كم تغيّبتُ عن المكان، ولكن، عندما وصلتُ وجدتُ أن منزل أهلي كان خالياً. عرفتُ أنّني ورثتُ البيت بعد رحيلهم، بالمناصفة مع قريبنا البعيد ذي الوجه الأسمر الكشر الذي يمتلك دكّانة قرب المنزل. هممتُ بتنظيف البيت الذي كان يكسوه الغبار، وبالبحث، في الوقت نفسه، عن أحد ظروف التبغ التي بعثرتُها عندما وصلتُ في أرجاء المنزل كلها. تضايقتُ، لأنّني شعرت بوجودٍ ما في المنزل. لذلك سعدتُ عندما سمعتُ طَرَقاتٍ على الباب. فتحتُ، لأجد قريبي مرتدياً جلابية بيضاء وقلنسوة بيضاء صغيرة وممسكاً مسبحة بيده. سألني، وهو يشيح بوجهه بعيداً عنّي، عمّا إذا كنتُ أريد شيئاً. قلتُ له إنّني أحاول تنظيف المنزل، ولكنّني أشعر أنّني لستُ وحدي هنا. قال بجفاء: بماذا حشوا رأسكِ؟ ثمّ تذكّر أنّه تعرّض لأمرٍ مماثل عندما كان يحاول إصلاح الأنابيب المعطّلة في البيت. قال لي: من الأفضل ألا تعيريهم انتباهاً، سبق وأن عملتُ هنا لساعاتٍ متواصلة، ثمّ ملّوا من تلقاء أنفسهم. ذكّرني قبل أن يذهب أنّني يجب أن أذيع نبأ وفاة أهلي بنفسي، ليصبح الأمر رسمياً، حتّى يتمكّن أهل الحيّ من القيام بواجباتهم تجاهي.

على الأريكة الكبرى في غرفة الجلوس، رأيتُ الكثير من الظلال لفئران تمشي على حافتها. كانت المدينة الآن محاصرة، وكانت الفئران دائماً هكذا تزداد حُرّيّة في مواسم القحط. فكّرتُ أنّني أستطيع العودة إلى عملي القديم في التلفزيون، لأجني بعض المال، وأتمكّن من تدبّر بعض

ما يُؤكَل. كان جناح التحرير في القناة يبدو لامعاً، وكان المحرّرون مجتمعين لمناقشة تصوير تقريرٍ جديد عن الفئران. أخذتُ مكاني بينهم بعد أن تبادلنا التحية. كانت إحدى المحرّرات تشير إلى ورقة مطبوعة كبيرة بالأبيض والأسود عن الموضوع الذي يجب أن يتمّ تصويره، وهو قصّة غزو الفئران للمدينة، وكنّا نتساءل في أيّ باب سنضع هذا التقرير. تبرّع الزملاء بعد ذلك لمرافقتي في جولة ضمن المدينة، لأرى كيف أصبحت في هذه الفترة. كانت نتائج الحرب ما تزال ظاهرةً عليها. مررنا قرب مركزٍ حربيّ، كان يتمركز فيه المقاتلون. هناك رؤوس مقطوعة مصغّرة الحجم مجهّزة لتُذوّب في ثلاثة أوعية كبيرة، تتضمّن محاليل ملوّنة. من أجل ذلك، تمّ تقسيم مجموعة الرؤوس المحصودة إلى ٣ أقسام. وظيفة المحاليل هي جعل الرأس تطرح عصارة ذهبية أو عسلية ولوناً آخر لدى عصرها فيما بعد. لتسهيل العملية، تمّ مَدّ أنابيب نصف دائرية، تُوضَع الرؤوس المحصودة المصغّرة فيها، وتدفع، لتصل متدحرجة إلى نهاية الأنبوب فوق وعاء، يحتوي أحد المحاليل الثلاثة.

كان الوقت قد حان لأعود إلى المنزل. قبل أن أصل بقليل، كانت سيّارة سوداء تسدّ الطريق الضيّقة المتّجهة نحو مدخل البيت. أضاء الحجر الأخضر بقوّة فوق صدري، وعرفتُ أنّه هو. مررتُ بجانب السيّارة، وانحنيتُ على النافذة. كان يرتدي كنزة وقبّعة صوفيتين سوداوين. ابتسم لي، وطلبتُ منه أن يسامحني، لأنّي مزّقتُ صورنا كلها معاً، كما أنّني سبق وأن غادرتُ المدينة دون أُخبره. بدا لي أنّه صدّقني، ولكنّه رفض مع ذلك أن يصعد معي إلى المنزل خوفاً من أهلي. لم أقل له إنّهم قد ماتوا منذ زمن طويل، كما يبدو من الغبار الذي يكسو المنزل. تذكّرتُ نصيحة قريبي في وجوب أن أُعلم أهل الحي بنفسي، ليتمكّنوا من القيام بواجبهم. قلتُ له أن يسبقني إلى منزل جارتي التي يعرفها، لألحق به بعد قليل.

بعد أن عدتُ إلى المنزل، توجّهتُ إلى النافذة، وأردتُ أن أصيح، ليسمع الناس في الحيّ أنّ أهلي قد رحلوا، ولكننّي استدركتُ أنّني غبتُ وقتاً طويلاً عن المكان، ولا أعرف كيف سأُخبرهم، وكيف أصبحوا يتكلّمون في هذا الوقت. فكّرتُ قليلاً، ثمّ أذعتُ النبأ بصوتٍ مرتفع متحدّثة بالطريقة التي كنتُ أتحدّث بها مع أهلي دوماً.

كان بإمكاني الآن أن أنام بارتياح مرّة أخرى، ولكنّي لم أكد أغفو لدقائق حتّى كان الباب يُطرَق من جديد. طرقاتٌ هادئة في البداية، ثمّ فُتح الباب عنوة، ليدخل الرجال الثلاثة الآن. قلتُ لهم إنّني سعيدة هنا، ولا أريد العودة إلى فندقهم. سألني أحد الرجلين اللذين يرتديان معاطف بيضاء طبّيّة عن أيّ فندقٍ أتحدّث، واستفسر عمّا إذا ما كنتُ قد غادرتُ غرفتي. نفيتُ ذلك تماماً. سألني مجدّداً ما إذا كنتُ قد قمتُ بزيارة الفندق المقابل لنا، وما إذا كان هذا هو الفندق الذي أقصده، وتحدّثتُ إلى المرأة التي قطنت هناك لبضعة أيّام. نفيتُ أيضاً. أخبرني أنّها رمتْ نفسها في اليوم التالي لوصولها. لم يكونوا هنا من أجل الدواء هذه المرّة، قالوا لي إنّ علينا أن نغادر المكان بسرعة، لأنّه قد يتهدّم في أية لحظة. كنتُ الآن أفهم ما يجري بوضوحٍ أكثر، مع صوت صفّارة الإنذار الذي بدأ يدوي في الأرجاء. كنتُ قد حفظتُ الترتيب جيّداً: يتصاعد صوت الصافرة لعشرين ثانية، ومن ثمّ ينخفض لدرجة واطئة مدّة عشر ثوان.

كان الحبر في آنية الماء يتشكّل مرّة أخرى، ليظهر رسماً للنار. قلتُ لهم إنّني لا أريد الرحيل من هنا، ولو انهدم المكان فوق رأسي.

خمس عشرة ثانية، ودرجة منخفضة واطئة لعشر ثوانٍ.

قذائف مَن يسمّونه المهرّج البدين ذا السيجار الآن هي ذاتها القذائف التي أمطرتْها علينا منذ عقودٍ طويلة مدافع الجنرال الصغير. لم يكن يمكن

أن أكون أقلّ اكتراثاً بأيّ ممّا يمكن أن يحدث، ولكنّني أعلم أنّني إن قاومتُ، فسيُوضّبون أغراضي بجلافةٍ بأنفسهم.

خمس عشرة ثانية، ودرجة منخفضة واطئة لعشر ثوانٍ.

لم أقبل بأقلّ من سبع حقائب كبيرة، وضعتُ فيها ما أملكه كله، حملتُ اثنين منها، وتوازع المرافقون الثلاثة حَمْلَ الحقائب الأخرى. كنّا نركض على المرج الأخضر المحاذي للقلعة، لنصل إلى السيّارة التي ستقلّنا. قبل أن نصل إليها، كان القصف قد بدأ.

عشرون ثانية، ودرجة منخفضة واطئة لعشر ثوان.

التفتُّ إلى الخلف، ورأيتُ نصف القلعة يحترق، لم أكن أريد التحرّك بعد ذلك. رميتُ بنفسي إلى العشب مفلتةً حقائبي، ورافضة التحرّك. لم يكن المرافقون، ليُخاطروا بحياتهم من أجلي، حتّى لو كان القاضي يراقبهم الآن بنفسه. فليطمركم الخراء أنتم وإيّاه معاً. لم يكن ليحدث هذا كله، لولا حماقته أصلاً، ولم أكن لأبقى حتّى الآن، وأرى ما حصل كلّه بعد ذلك. كانت النار قد امتدّت، لتلتهم المرج، وعلى ضوئها، رأيتُ آثاراً طرية على العشب لقَدَمَي امرأة، كأنّها كانت قد مشتْ قبل قليل فقط عليه.

خمس عشرة ثانية وعشر ثوان.

ولكنّني كنتُ أعرف أكثر من أيّ أحدٍ آخر، أنّها لم تمشِ عليه الآن، بل بعد وقتٍ طويل جداً، بعد أن رمتْ بنفسها من شرفة الفندق الذي سيكون مواجهاً لخرائب القلعة. لم تكن هذه المعرفة لتفيد أحداً الآن، على كلّ حال.

سربٌ زاهٍ من عناكب المانجو

هناك عدّة أسباب لتُعجَبَ بسكّان هذه البلدة: كيف يتعاملون بتبسّطٍ واسترخاء بالغين مع الحرارة الخانقة التي تلفّ المكان، وكذلك أنّهم يتمتّعون بقدرٍ كافٍ من الطرافة، ليقوموا بوضع هيكل باصٍ مدرسيّ خَرِب على سطح المدرسة مع ثلاجّة للمشروبات، ليتحوّل السطح إلى مقهى، يسترخي فيه المُدرّسون. كان لديّ بعض الوقت قبل موعد الحصّة الدراسية القادمة، فانضممتُ إلى الآخرين على السطح، لأجلس على أحد مقاعد الباص الذي تمَّ انتزاع سقفه حتّى لا يفوت الجالسين التمتّع بأيّ نسمة. من بين أشياء كثيرة أخرى، يبدو الشغف وكأنّه يفسد بفعل الحرارة هنا، إذ عندما أقبّل رفيقي، شعرتُ على الفور بالندم لأنّني سألتُه إذا كان يريد مرافقتي عندما انتُدبتُ، لأعمل كمدرّسةٍ للأولاد في هذه القرية. تحمّس حينها للفكرة مقرّراً أن يستغلّ الوقت، في أثناء انشغالي، ليقوم بتصوير ما أسماه فيلماً تجريبياً في القرية، وقرّر المجيء معي. بعد أن رمى بثقله على المقعد قربي، قال بزهوٍ بالغ إنّه لم يتمكّن من الظهور في مشهدٍ من فيلمه كما خطّط، لأنّه اختبر انتصاباً ملحوظاً، بسبب تحرّش إحدى الفتيات به. قام بعد ذلك، ليجلب مشروباً من البرّاد الموضوع أمام هيكل الباص. انتهزتُ الفرصة، لأغادر بحثاً عمّن يملك السجائر، لأشتري، أو أقترض بعضها. من حسن الحظّ أنّ معظم التلاميذ هنا يدخّنون، لذلك فتحتُ باب أحد الصفوف، لأستأذن المدرّس، وأقوم بسؤال التلاميذ عن بعض السجائر. فُوجئتُ بوجود مدّرسٍ، لا أعرفه، ولم يكن من اللائق أن

أقاطع درسه، كما أنّه جديد، ولا يعرف بعد على الأغلب أنّ أولئك الأطفال يُدخّنون بشراهة. اعتذرتُ متذرّعة أنّني أخطأتُ الباب، ونزلتُ مجدّداً. كان صوت المعلّق يصدح في الأرجاء. كان دوره مشابهاً لإذاعةٍ محلّيّة، إذ يقوم باعتلاء البرج الرئيس في القرية كل يوم، ليتحدّث عبر مكبّر صوت عن شتّى الأمور التي تخطر بباله حتّى مغيب الشمس.

تمكّنتُ بعد قليلٍ من العثور على رجل يبيع السجائر، أو يبادلها أغراضاً أخرى. خلعتُ قرطيّ، ووضعتُهما على طاولته بعد أن أشار إليهما. حملتُ سجائري الثلاثة، وعدتُ إلى المدرسة آملةً أن يكون رفيقي قد ملّ وغادر، ليُصوّر فيلمه مجدّداً، لأتمكّن من الاسترخاء قليلاً في الباص وحدي. مشتْ بجانبي امرأة حامل. أشارتْ إلى السجائر التي أحملها، فأشرتُ لها أنّها يجب ألا تُدخّن في أثناء حملها. استمرّت بالمشي بجانبي للحظات أخرى، ونحن نستمع بصمت إلى المعلّق الذي كان يتحدّث الآن بحماسٍ عن امرأة قابلها قرب الشاطئ ليل الأمس. كانت خارجةً من البحر، وهي ترتدي قناعاً خشبياً ملوّناً، قناعاً خشبياً فقط كما يقول. خفتُ صوته، وبدا منهكاً، وهو يؤكّد أنّه يستطيع تمييز عينيها السوداوين من بين ألف واحدة، إذا رآها مرّةً أخرى.

تبرّعتُ بإحدى سجائري في النهاية، مستسلمة، للسيّدة الحبلى التي ظلّت تمشي معي حتّى وصلنا إلى المدرسة. كان المذيع يترجّى امرأة القناع الخشبي أن تزوره في البرج غداً، أو تقابله مجدّداً عند الشاطئ هذه الليلة. على سطح المدرسة، كان هيكل الباص فارغاً. المدرّسون ربّما يجتمعون في باحة المدرسة في وقت الفرصة، ليتبادلوا الأحاديث. استمرّ المعلّق في محاولة إغراء امرأة البارحة بقوله إنّه صنع لها قلادةً زاهية من بذور المانجو.

نزلتُ إلى الأسفل، لأتجوّل قليلاً في أرجاء المكان. مشيتُ في طريق

ضيّق، بدا مغموراً بالماء في النهاية، ومحاصراً ببيوت متلاصقة من الجانبين. خلعتُ حذائي، وحملتُه تحت إبطي، لئلا يبتلّ، وبدأتُ أخوض في الماء، وأنا أستند بيدي اليسرى على الجدار المحاذي للطريق المائي. كانت حياة كاملة قد تشكّلت في هذه المستنقعات الصغيرة؛ أعشاب ونباتات إسفنجية، أو شكلها إسفنجي على الأقلّ، لكنّها كانت مُدبّبة الرؤوس. بدأتُ أقفز على أطراف أصابع قَدَمَيّ، وأنا أحاذر لمسها، إذ كان من المستحيل أن يُخمّن المرء من شكلها فقط، إن كانت هشّة فعلاً أم قاسية. ربّما تكون سامّة، وقد لا تكون نباتاً أصلاً، وتتحرّك فجأة تحت قدميك. وأنا أتقدّم بالمسير، خرج بسرعة سربٌ من العناكب الكبيرة اللامعة برتقالية اللون من الماء، متسلّقاً المباني الملاصقة للطريق. أزهى العناصر أكثرها أذية، ذلك ما كنتُ أعرفه جيّداً، وهو ما أقلقني بشأن هذه العناكب البرتقالية الملساء. لم أرد العودة من الطريق مع ذلك، قطعتُ منه الكثير. أغمضتُ عينيّ، وتابعتُ المسير بسرعة مقرّرة أن أدوس أيّاً كان سيظهر تحت قَدَمَيّ. عاد صوت المعلّق للحديث: "لتلك الكائنات الأخرى بيوتها. نحنُ نتطفّل عليها على الدوام، ولها الشكر أنّها لا تقوم بقَتْلنا على الفور. من العدل أن نتوقّع أذيّتها". كان من الممكن أنّه يراني من برجه الآن، ويوجّه حديثه لي بالذات، أو أنّه حَدَثٌ معتاد أن يقوم الوافدون بالتطفّل على الممالك النباتية المائية جارة القروين. استجمعتُ قواي، وركضتُ حتّى أنهيتُ الطريق، عندها فقط توقّفتُ. كنتُ الآن واقفة على الشاطئ الرملي الأبيض، لم يعد هناك شيء مزعج المَلْمَس تحت قَدَمَيّ، لم يكن هناك سوى نعومة الرمل اللامتناهية. حتّى سرب العناكب البرتقالية الكبيرة الذي سار بهدوء على الشاطئ بدا تحت الشمس خيطاً من ثمار مانجو ناضجة ومسالمة ولامعة. كانت قطعةٌ من اليابسة تبدو ظاهرة في خطّ الأفق خلف هذا البحر. تلك لا بد أن تكون أفريقيا! جلستُ على الرمل، وأنا سعيدة لأنّني تذكّرتُ أنّني أحتفظ بسيجارة أخرى في جيبي.

خبرتان مفيدتان،
في باب طرد الأبناء من المنزل

١. مصنع المطر

"عوَس - عوسام - عاموس"

كانت البنات الصغيرات العائدات من المدرسة تردّدنَ في طريق العودة إلى المنزل هذه الكلمات المنغّمة لحفظها، والتي تعني: طير، أيلول، صخرة. كنتُ قد أضعتُ الطريق، ولم أتمكّن من الرجوع إلى حيث يقيم أقاربي. كانت أمّي قد أرسلتني في رحلة عقابية إلى هذه البلدة، بعد أن خرجتُ عن السيطرة تماماً في العامّ الماضي. رسبتُ في معظم موادّ المدرسة، واعتدتُ على المشاركة في كلّ عراكٍ يحدث خارج المدرسة، لأعود إلى المنزل مغطّاة بالكدمات، وأدّعي أنّ أحداً من الغجر المارّين بالمدينة حاول سرقة أغراضي، واضطررتُ للدفاع عن نفسي. زاد الأمر سوءاً حين ضُبطتُ وأنا أسرق مظلّة ملوّنة أعجبتْني من المتجر، وقامت الشرطة باحتجازي.

قالت أمّي إنّ الكيل قد طفح، وأنّني جحدتُ بما لدينا، ولذلك فقد حان الوقت، لأتعرّف أكثر إلى حيث أنتمي. تحدّثتْ إلى أقاربها في البلد، واتّفقوا أن أقضي العامّ القادم عندهم، هنا في هذه القرية.

اقتربتُ من التلميذات، لأسألهنّ إن كنّ يعرفنَ الطريق إلى منزل أقاربي. تجاهلْنَني تماماً، وتابعنَ طريقهنّ وهنّ يردّدنَ:

"ميراخ، ميراخاد، ميخود"

بندقية، أمّهات، أرض. لم يكن هناك حلّ سوى أن أذرع البلدة دون هدف، إذ كانت تبدو صغيرة على كل حال، ومن الممكن أن أجد أحداً من أخوالي بالمصادفة، أو أجد نفسي قبالة الدار. كانت البيوت صفراء منخفضة الارتفاع، ما عدا بناء المعبد الذي كان يمتدّ على مسافة، تشغل وسط القرية بأكمله تقريباً. استغرق منّي الأمر أكثر من ساعة، لأدور حول سوره دورةً كاملة، وكنتُ أظنّ البلدة بأسرها أصغر من ذلك.

بعد أن انتهيتُ من الدوران حول المعبد، استطعتُ أن أميّز واحدة من بنات خالاتي مستندة إلى جدار. كانت تحادث شابّاً وهي تضحك، مُزيِّنة رأسها بوشاح صيفي ذي ألوان زاهية، تظهر من خلاله منابت شعرها الأسود. لوّحتْ لي بيدها عندما رأتْني، وطلبتْ من الشابّ أن يغادر. لم تكترث بسؤالي عن طريق المنزل. قالت لي إنّهم الآن يحاولون جلب المطر في القرية. بدت لي تلك فكرة جيّدة نظراً لأنّ الأرض هنا تبدو قاحلة للغاية. سألتْني إن كنتُ أريد أن أذهب بدوري، لأصنع بعض المطر مع الطَّلَبَة، ولم يكن لديّ أمر أفضل أفعله. رافقتُها وهي تقودني إلى الجامع مقرّرة أن أتتبّع خطواتها، وأفعل كما تفعل. مررنا بالردهة الأمامية متقشّفة الزينة للغاية حتّى وصلنا إلى فسحة منتصف الجامع المظلّلة بقبّة، لها خمس فتحات دائرية. على السجّادة الحمراء كان الطَّلَبَة واقفين بتجهّم أمام منصّات خشبية صغيرة، يقرؤوون من كُتُب الأدعية التي أمامهم. حيّتْهم ابنة خالتي، ولكنّهم لم ينظروا إلينا، مستمرّين بقراءة الدعاء. أحدهم أغمض عينيه، ليضمن ألا تقع علينا كما بدا لي. كانوا شبّاناً سُمر الوجوه حليقي الرؤوس، بالغي الوسامة. وفي أثناء قراءتهم، كانت أسنانهم تظهر من بين شفاههم شديدة البياض والاتّساق. كان نظري يتعلّق على وجه

كلّ منهم قليلاً، وأنا أمرّ من أمامهم، وبالكاد استطعتُ أن أضبط نفسي عندما انتبهتُ إلى أنّني جاوزتُ الحياء في نظري. مشتْ بي ابنة خالتي إلى مصطبة مفروشة بالوسائد الحمراء، ترتفع درجتين عن فسحة المعبد، حيث يقرأ الطَّلَبَة. خلعتْ حذاءها وغطاء رأسها، وتناولتْ، قبل أن تصعد الدرجات، كتاباً مهترئاً مكتوباً بخطّ اليد موضوعاً، مع كُتُب أخرى، في سلّة مصنوعة من القشّ قرب الدرجات. وفعلتُ مثلها. حينَ وصلنا إلى المصطبة، فتحتْ ابنة خالتي الكتاب، وبدأت تقفز في مكانها مع قراءة المقاطع المكتوبة بصوتٍ عالٍ. بدا الأمر مُربِكاً، ولكنّ الطَّلَبَة كانوا يوجّهون أنظارهم إلى سطح القبّة فقط إذا حدث ورفعوا أعينهم عن كُتُب الأدعية التي يقرؤوون منها. لذلك تشجّعتُ، وفتحتُ كتابي، وبدأتُ أحرّك جذعي ببطء صعوداً وهبوطاً، تمهيداً لأن أقفز في مكاني مثلها. كنتُ أتمكّن من تهجئة الكلمات بصعوبة، ثمّ نجحتُ في أن أحرّك نفسي بخفّة أكبر، وأنا أتهجّى كلمات الكتاب مصفرّ الأوراق الذي كان قصّة قديمة للأطفال عن هرٍّ أحمر. مع نطقي للكلمات التي في الكتاب، كانت شرارات صغيرة تضرب جوانب المنصّات التي يقرأ من عليها الطَّلَبَة. مع كل بضعة شرارات كانت قطرات من الماء تنزل من السقف. عندها قطع أحد الطَّلَبَة قراءته، وتقدّم إلى المصطبة باهتمام، ليسحب الكتاب من يدي، ويعطيني واحداً آخر، يبدو أكثر جدّةً من الأوّل. ثمّ رجع إلى مكانه، وعاد لقراءة الدعاء، وهو ينظر إليّ، ويومئ بوجهه، ليحثّني على بدء القراءة مجدّداً. أمسكتُ الكتاب الجديد، وعدتُ للقفز، وأنا أحاول تهجئة الكلمات متّجهة بنظري إلى القبّة:

"*عوس عوسام عاموس*"

انظري إلى بناتكِ، يا أمّي.

ضَلَلْنَا الطريقَ إلى المنزل.

نجمع إخوتنا، لنعود.

كنتُ أستطيع أن أشمّ الآن نتيجة عملنا طافحةً من الأرض بوضوح، لأنّ الشرارات التي تضرب جوانب المكان كانت أوضح وأكبر، وكانت خيوط الماء الفضّيّة تتدفّق بوفرة من الفتحات الخمس للقبّة ضاربةً قلب الجفاف، حتّى بلّلتْ سجّادة الطَّلَبَة، وهم يرفعون صوتهم أكثر بتلاوة الأدعية.

٢. قصّة القلوب المتوقّفة

"دعوني أكتب قصّة عن القلوب المتوقّفة. الكتابة عنها ليست سهلة بالطبع، لكنّ تمييز أصحابها سهل. تراهم يضعون يداً فوق الأخرى على صدورهم. أن تدفعهم ليغادروا، هم وقلوبهم المتوقّفة، أو تحصّنهم باللغو، ليتخدّروا قليلاً، فذلك أفضل ما يمكن لك فعله".

رغم قلبي الخامد، مثل بقية قلوب إخوتي، لكنّنا كنّا مستعدّين للتحلّي بالشجاعة فقط عندما يتعلّق الأمر بمحاولة تفادي الذهاب إلى منزل والدي. لم نكن قد رأيناه منذ وقتٍ طويل جداً، منذ أن طَرَدَنَا من المنزل. والدي الطبيب صعب المراس، رأى أنّ الحياة الرخوة التي نعيشها قد بدأت تُفسد جوهرنا، كما قال، وأنّنا لا نواجه أيّ تحدّ لقِيَمِنَا. جمعنا في الليلة الأخيرة، وطلب منّا ألا يطلّ الصباح قبل أن نغادر. قال إنّ علينا أن نذهب، نذهب وحسب ونتدبّر شؤونا بمفردنا، مع وعدٍ بأن يُعيدنا إلى المنزل حين يرى أنّ الوقت مناسب. لا يهمّ أين سنكون، إذ قال إنّه سيعثر علينا، ويجمعنا للعشاء في المنزل مجدّداً، وعندها سيكون بإمكاننا أن نواصل الحياة هنا، كما في السابق. كان مصرّاً على ألا يتواصل مع أحدٍ منّا، لئلا نستسهل الخطأ، ظنّاً منّا أنّه ما يزال موجوداً، ليردّ عنّا تبعات حماقاتنا. في الأيّام الأولى بعد أن تركنا المنزل، كان يحدث أن يدفعنا الفضول أحياناً، فنتسلّل إلى التلّ المحاذي حتّى نتفرّج عليه. كان أبي قد سوّر حديقة البيت، وزرعها بالكلاب. كان صارماً فيما أراد. بعد مرور بعض الوقت، لم يعد بحاجة إلى تلك الجهود كلّها في الواقع، إذ بدأت حياتنا الجديدة الشريدة تروق لنا للغاية. بعد أن كانت الأيّام الأولى متعبة، ونحن نواجه شبح الإفلاس، وذعرنا من الغرباء والمتسوّلين الذين انضممنا لهم في الشارع، بدت الحُرّيّة المفاجئة التي حصلنا عليها أمراً حسناً، وطفقنا نجوب الأزقّة دون أيّ عبء. لم أطقْ فكرة أن نعود مجدّداً إلى منزل والدي،

حيث يراقبنا طيلة الوقت، ونُجبر على تتناول وجباتنا، والخلود للنوم، والاستيقاظ بمواعيد محدّدة. قرّرتُ أن أختفي في مكانٍ ما، أبعد ما يمكن عنه، لئلا يتمكّن من العثور عليّ، وسَجْني في المنزل مجدّداً بقية حياتي.

ظَلَلْتُ على تواصل مع إخوتي رغم ذلك، إذ كنّا نتراسل، لنتبادل الأخبار، وكذلك لنطمئنّ إلى أنّ والدي لم يعثر على أحدنا بعد، ليصطحبه إلى المنزل. كنّا نتّفق أيضاً على ما سنقوله، إذا حدث واجتمعنا عند أبي، كيف سنتصرّف على المائدة، وكثير من الأمور الأخرى. إذ كنّا نخشى أن يتمكّن من إجبارنا على الذهاب في نهاية الأمر.

جلتُ كثيراً حتّى اهتديتُ إلى البقعة المناسبة، لأختفي فيها بعض الوقت. لم يكن المكان جنّة العيش التي يحلم بها المرء تماماً، لم يكن قريباً من ذلك حتّى. لكنّه، ورغم بُعده وصقيعه وفَقره، كان ملائماً لإمضاء الوقت دون تفكير، إذ كان ناجياً حتّى وقتٍ قريب من مَدّ الموجات الدموية للحرب التي أكلت وجه العالم. لم يطل ذلك، لسوء حظّي، بدأت تباشير النزاع تظهر هنا أيضاً بعد أن كنتُ قد مكثتُ لبعض الوقت، لم تكن عيني لتغفل عن ملاحظتها. بدأتُ أخطّط للرحيل مجدّداً، إذ كان بإمكاني مراقبة النعوش التي تُحمَل كل يوم في البلدة باتجاه المقبرة. في البداية، كانوا يُنزلونها إلى الأسفل بتمهّلٍ ورفق، ومن ثمّ باتوا يستعجلون مع ازديادها. دائماً ما كان ذلك يحدث. لقد رأيتُه كثيراً من قبل، ولذلك كنتُ أنوي أن أغادر المكان. كانت النباتات القوية التي لطالما شقّت طريقها هنا بين الصخور المكَسوّة بالثلج قد بدأت تنهزم في هذا الموسم، لتذبل، وتفرش الأرض كطواطم للشؤم. قالت جارتي أنْ لا علاقة بالطقس بذلك، وإنّ النبات يستجيب فقط لرائحة الموت في البلدة. حزمتُ أمري، وعزمتُ على أن أتصرّف بسرعة عندما وصلتْني رسالة من أخي الأكبر، كان مضمونها

نفسه عادياً، لا يختلف عن مضمون أيّ رسالة أخرى، يُرسلها في العادة، شكوى من قسوة ظروف عمله في البناء. كان أخي وحشاً رثَّ المظهر، وكانت تلك وسيلة جيّدة لإبعاد الناس عنه قبل أن يقتربوا لمسافة كافية، ليلحظوا قلبه الخامد. ما ساءني في الرسالة هو أمرٌ لاحظتُه على المظروف، إذ كان وجهه الأمامي يحمل بقعاً صغيرة مصفرّة منثورة تحت لسان الظرف المغلق، وكان الحبر الذي خطّ به عنواني على الظرف قد تفشّى قليلاً خارج حدود الأحرف. عندما شاهدتُ ذلك، بدأت أوضّب أغراضي على الفور دون أن أستقرّ على وجهةٍ جديدة. لم أكن جاهزة، لأذهب إلى العشاء، وهو قريب الآن دون شكّ، لأنّ والدي بات يعرف أين أنا.

دثّرتُ نفسي جيّداً قبل أن أفتح باب الكوخ. كان الثلج في الخارج يعمّ المكان، ولكنّني مشيتُ مسرعة، وأنا أغطّي وجهي بالوشاح الصوفي. اضطررتُ إلى التمهّل قليلاً، لأردّ تحيات النساء اللواتي كنّ مجتمعات في السوق وهنّ يعلّقنَ السمك المجفّف الذي علقتْ به ندفات ثلجية على الحبال قبل أن يبدأ أوائل الزبائن بالقدوم. لم يكن بالأمر السهل أن أتجنّب حديثاً عابراً معهنّ. في كل مرّة، رقدت فيها إحداهنّ على فراش الولادة كنتُ أنا التي أقوم على رعايتها حتّى يخرج المولود. لم أخطّط لأن تكون حياتي على هذا النحو هنا، إذ بدأ ذلك كله بالمصادفة حين وصلتُ إلى هذا المكان، وقرّرتُ أنّني أستطيع المكوث هنا قليلاً بعيداً عن يَدَي والدي، وعن أخبار الحرب والطاعون. كنتُ أسلّي نفسي بسَحْق الأعشاب المجفّفة التي جلبتُها في الحقيبة، مع أعشابٍ أخرى، ألتقطها من هنا وهناك، وصناعة أمزجة مخدّرة، لئلا يقضي هذا المناخ القاسي على روحي. لم يكن هناك أحد أعرفه في البداية سوى امرأة شابّة، كانت قد اعتادت الجلوس أمام دارها لنسج السلال، بينما يلعب حولها أولادها الكثيرون المتشابهون الذين يبدون حتّى في العمر نفسه، في أيّام غياب

زوجها الذي يعود كل فترة محمّلاً بالقشّ الكثير، ويكدّسه في باحة المنزل، لتنسلَ منه زوجته خيوط صنع السلال، قبل أن يعود إلى رحلاته في اليوم التالي. كانت العادة هنا أن تتمّ الولادة بحضور القريبات، كالأمّ أو الخالة أو الأخت، أو مَن وُجدت في المكان. ولكنّ أحداً لم يكن مع جارتي الشابّة عندما رقدت لتلد، كما أخبرني أحد أولادها الذين لا أميّز بينهم، حين طرق عليّ باب الكوخ، لينقل إليّ طلب أمّه في أن أكون إلى جوارها. أخرجتُ من صندوق الأعشاب قدر قبضة اليد من أوراق ذنب الأسد المجفّفة مع أزهارها، وطلبتُ منه أن يسبقني إلى منزلهم.

عندما وصلتُ إلى الحجرة، كانت جارتي الشابّة جاهزة لتلد، ولم يكن مخاضها يبدو عسيراً. توقّعتْ ذلك بشكلٍ ما، إذ كان قد سبق لها الإنجاب مرّاتٍ عديدة من قبل. لم أكن واثقة تماماً ممّا ينبغي عليّ أن أفعله، والزاوية التي كانت تستلقي فيها بدت مظلمة على نحو أربكني أكثر، فجررتُ فراشها عبر الغرفة حتّى بات منفرج ساقيها في مواجهة الباب، لأتمكّن من رؤية ما سأفعله بشكلٍ واضح. سقيتُها القليل من نقيع العشبة، ثمّ صلّيتُ في سرّي مترجّيةً الرّبّ أن يعفيني من ارتكاب الحماقات، ومرّرتُ الشفرة القديمة التي وجدتُها في المكان على النار الموقدة تحت قدر الماء . انحنيتُ، لأستقبل مولودها الجديد فاقدةً الأمل في أن أتمكّن من إبعاد إخوته الفضوليين الذين تجمّعوا حولي للفرجة عليه، وهو يخرج. لم أكد أنتهي من غسل الولد، الذي كان يصرخ ملسوعاً من البرد القارس، حتّى كان إخوته الكثيرون يركضون في أحياء البلدة، وهم يتحدّثون عن الولد الجديد الذي جاء بمساعدة "الطبيبة". كنتُ في هذه الأثناء أضع الولد في صندوقٍ، قمتُ بإعداده على عجل، لأتمكّن من تدفئته بجمع بقايا من صوف الغنم كانت موجودة على إحدى الأرائك، ووضعتُ فيه كرة قماشية نظيفة مَحشوّة بالعدس المسلوق الدافئ، ليلتصق بها الرضيع

متدفّئاً ريثما تخلد والدته إلى النوم بعد إرهاق المخاض. وهو ما كنتُ أفعله قديماً في منزل والدي عندما كنتُ ألتقط القطيطات حديثة الولادة من الطريق إثر تخلّي أمهاتها عنها.

أظنّ أنّ هذه العناية بدت فائقة المهارة والإتقان، في نظر بقية النساء ممّن كنّ ينتظرنَ الولادة. وبتنّ يطلبنَ وجودي معهنّ عندما يدخلنَ في المخاض. بدا ذلك نابعاً من رغبةٍ بالشعور بالرفعة أو الحظوة أكثر من كونه مرتبطاً بحاجةٍ حقيقية إليّ. سهّل عليّ ذلك تدّبر أمور معيشتي، إذ انصرفتُ لالتقاط ما أعثر عليه من أعشاب بريّة، لأصنع ممّا يصلح منها مشاريب خاصّة للولادة، أو على الأقلّ، أحرص على أنْ تبدو كذلك، ولصناعة صناديق التدفئة من بقايا الأخشاب أو القشّ والصوف والقماش، مع الأرز أو العدس الساخنين اللذين يزوّدني بهما أهل الطفل القادم، مع هدايا سلال السمك المجفّف والبطاطس والدهن التي كنتُ أعتمد عليها بالكامل فيما آكل. لأنصرف بقية الوقت إلى تركيب توليفاتي العشبية، لأذهل قليلاً عن بلادة المكان.

الآن انتهى ذلك كلّه. لم يعد لي مكانٌ هنا، إذ كان عليّ أن أسرع لمغادرة البلدة قبل أن يتمكّن والدي من العثور عليّ. قلتُ للنساء في السوق، إنّني سأغيب قليلاً للبحث عن أعشاب جديدة. ودّعنَني بعد أن تأكّدنَ أنّهن دَسَسْنَ في جيوب معطفي ما يكفي من قطع السمك المملّحة، لئلا يداهمني الجوع في رحلتي.

كنتُ قد قطعتُ البلدة بمسافة بعيدة، وأنا أجاهد لأسرع في مسيري، بينما تغوص قَدَمَاي في الثلج حتّى الركب، عندما عرفتُ أنّني قد تأخّرتُ في الهرب؛ إذ كانت في إثري الآن عربة ركّاب، تجرّها أربعة أحصنة ياقوتية بيضاء كثيفة الشعر، تدقّ الأرض بقوائمها القصيرة الثخينة. حاولتُ، رغم

استحالة الفرصة، أن أسرع في الجري، ولكنّ الأحصنة كانت قد حاذتني، لأتمكّن بوضوح من تمييز كبير الخَدَم الذي يعمل في منزل والدي قابعاً في المقعد الخلفي للعربة. السباق مع الأحصنة الياقوتية شديدة البأس على أرض ثلجية ضربٌ من الجنون. لذلك، وعوضاً عن أن أستمرّ في الجري بمحاذاة العربة، لأكون هدفاً سهلاً، ويتمكّن رسول والدي من التقاطي بسهولة، حرفتُ مساري فجأة متوجّهة بعكس اتجاه العربة نحو تلّةٍ صخرية، لأكسب بعض الدقائق ريثما كانوا قد اضطرّوا لإيقاف العربة، ونزل رجل أبي منها ساعياً خلفي. لسوء حظّي، كانت التلّة الصخرية تطلّ من الجانب الآخر على وادٍ سحيق. ولكنّني، ودون أن أنتبه، لفرط رعبي من الملاحقة؛ وجدتُ نفسي أنزلق، ليصبح جسمي بأكمله معلّقاً يتأرجح في الفراغ، متمسّكةً بالصخور الثلجية بشدّة، بينما كنتُ أفقد الشعور بيدي تدريجياً، وهما متشبّثتان بالحافة قارسة البرودة. هذا هو إذاً. وقف رجل أبي على الحافة ناظراً إليّ من الأعلى، فصلّيتُ، لتهون عليَّ هذه اللحظة، وأفلتُّ الحافة مغمضةً عينيّ.

عندما فتحتُ عينيّ من جديد، كنتُ جالسة إلى المائدة الخشبية في منزل والدي، وأنا أحدّق بالطبق الفارغ أمامي على الطاولة. عندما استوعبتُ ما حدث، خفضتُ رأسي على الفور مركّزة نظري في الطبق، لئلا أتلفّتَ وأنظر حولي، كما هي العادة القديمة في المنزل. إذ كان محرّماً أن يحدّق واحدنا في وجه أخيه على العشاء، وطبعاً في وجه والدي. كان أبي يقول لنا في صغرنا ليُخيفنا إنّ مَن يتجرّأ على كسر هذه العادة سيسقط على الطاولة خيطاً من الملح. رغم أنّني لم أنظر، لكنّني كنتُ متأكّدة أنّ إخوتي كلهم جالسون حول الطاولة التي يجلس أبي على طرفها البعيد مُترئّساً الجلسة. كان الحساء يُسكَب الآن في الطبق تمهيداً لتناول العشاء. وارتفع بخاره الساخن إلى أنفي، فتحرّكت معدتي كأنّني لم أتناول

طعاماً منذ الأزل. رفعتُ الملعقة، لأبدأ، وعندها سمعتُ صوت ملعقةٍ، تَطرق على الطاولة الخشبية. انتظرتُ بضع ثوانٍ بعد سماع الصوت، وأنا أفكّر في مغزى ما حدث، ثمّ ضربتُ بملعقتي بدوري على الطاولة، بدأ بقية إخوتي بعد ذلك بطَرْق ملاعقهم بالتتالي. عَدَدتُ الضربات واحدةً تلو الأخرى، وكان ما ظننتُه صحيحاً، إذ إنّ إخوتي موجودون كلّهم. لم أكن سعيدةً بالطبع، لأنّ والدي تمكّن من جلبنا رغماً عنّا في النهاية إلى المنزل، ولأنّني كنتُ أتوقّع عقوبةً بالغة القسوة بعد أن حاولتُ الهرب من الدعوة وتجنُّب العودة إلى البيت، لكنّني كنتُ أستسلم للخدر الذي بثّه فيّ دفء الغرفة مع رائحة الطهو، ومعرفتي أنّ إخوتي الآن حولي، وبتُّ أتشوّق للعودة إلى غرفتي حتّى أرمي نفسي على الملاءة النظيفة.

كان الحساء الذي سُكب في الأطباق هو حساء الهليون، ويعني ذلك أنّ طبق العشاء هو السمك. لم أكن متحمّسة لذلك، وقد قضيتُ الفترة الأخيرة كلها أتناول السمك المجفّف. وكذلك كنتُ، رغم جوعي الآن، خائفة ممّا قد يحدث. وبدأ إحساسي بالخدر يتلاشى، لأتوتّر مجدّداً من التفكير بما نحن عليه.

لقد جُمعَت رؤوسنا هنا لسبب. وقيل لنا إنّه كافرٌ مَن يُنكر علينا هذا الحقّ، لا تنظر في عين أخيكَ، فلا يعرف ماذا أتيت تخفي هنا. لقد عاهدنا أنفسنا أن نعيش للأبد أبناء هذا السيّد مدّعين أنْ لا شيء حصل معنا طيلة ذلك الوقت، عاهدنا أنفسنا أن ننتظر يده الرحيمة تملأ أقداحنا، وتمرّ على وجوهنا المُطرِقة في أطباقنا عارفاً بما حدث. كان يستطيع أن يمنع ذلك كله من زمنٍ طويل بيده هذه، أن يكفّ عنّا دنس الجذور، لكن، ها نحن نجتمع على مائدته، يُبعد كلٌّ عينَه عن عين أخيه وننتظر أن يُوزِّع علينا حصص السمك برحمته، نجتمع حول كرسيّه بقلوبنا

الزجاجية، ويضمّنا إليه. أواه، أبنائي الأرقّ من غيمة، لا شيء حصل لكم طيلة ذلك الوقت، ولكنّكم اضطررتُم لأن تشاهدوا. بوجودنا هنا لم يعد من حاجة للغفران. أُنهكنا عندما حدث ذلك كلّه، مشينا عبر الهباء، بين حرائق الأرض منكّسي الرؤوس، بين القتلى، المحروقين والمجذومين. حملنا نجاتنا كصليب، واتّفقنا أن نجتمع هنا مدّعين أن لا شيء حصل معنا. كُرهاً لكَ كيف حمّلتَنَا نجاتنا كصليب. كرهاً لكَ. كيف لم تصفح عن أخينا بوهَم عندما شرق بأحشاء السمكة، وقال لكَ إنّ خلاصنا هذا آكلٌ من رؤوسنا في النهاية. "أبصق عليكَ وعلى أسماككَ". لم ينظر أحدٌ منّا إليه، وأدرنا رؤوسنا مرتاعين عنه. لم تصفح عنه، لم تصفح عنه بعد ما حدث كله. في كل لحظة، هناك مَن تعرف أنت ماذا يحدث لهم، هناك مَن لم تخلّصهم مثلنا. مَن لم تحمّلهم نجاتهم كصليب، مَن لم تلبسهم لعنة القلوب المتوقّفة. قلوبٌ هوت على عدد أسمائكَ التي اتّخذتَها لكَ. لم تصفح عنه، رأينا بساط الملح يُفرَش تحت أرجلنا، وسارعتَ إلى رمي أحشاء السمكة في السلّة. قلتَ إنّ بوهَم ذهب حين لم نره، غادر الغرفة فحسب في غفلةٍ منّا. قلتَ إنّنا أحبّاؤك، وإنّك كففتَ عنّا التجربة. طلبتَ ألا نحزن، لأنّك ستُخرج الأسماك بوفرة من السلّة، ستُخرج لنا بوهَم من السلّة التي رميتَ فيها الأحشاء والكثير من القلوب المتوقّفة.

فهرس المحتويات

العثور على سيناريو مناسب لم يكن مسألة صعبة، كان أسهل جزء من العملية. ولكن، كيف يمكن العثور على الشخص المناسب، الشخصية الهائلة، وافرة الحضور والقوّة، لنسند إليها دور صلاح الدين؟ اتّفقتُ مع المنتج على الحضور إلى الشركة في الصباح التالي، لأطّلع على ما لديه من خيارات. خطوتُ على بلاط رقعة الشطرنج في طريقي إلى مكتبه، بدا التباين برّاقاً بين اللونين، بدا ضاجّاً بالحيوية أكثر من الحياة البطيئة التي تجري فوقه في الشركة، الموظّفون الضجرون والأزيز الرتيب للمراوح الكهربائية. الصخب الذي بثّته فيّ المربّعاتُ كان متناغماً مع إيقاعٍ يضجّ في رأسي، لعبةُ ريتشارد مع صلاح الدين: «الأبيض يتقدّم ويميت في النقلة القادمة».

تأبّط المنتج ذراعي مرافقاً إيّاي إلى مكتبه. لم أوافق على أيّ اقتراح من دفتر الصور الذي عرضه عليّ لممثّلين مرشّحين للدور، شبّان مراهقون سمجون، أو كهول تلمع مساحيق الزينة على وجوههم في الصور. عندما رفضتُ المرشّحين كلهم، أغلق الدفتر، وسألني بكلّ جدّيّة إن كنتُ أعي تماماً ما نحن فيه الآن، إنّ الأمر مرتبط بذلك التمثال في حجرة القائد المتوفى وأنّ المهمّة شبه وطنية الآن: أن نُنتج عملاً سينمائياً عملاقاً عن صلاح الدين.

BIC
AS

ISBN: 978-88-85771-19-2
9 788885 771192

المتوسط